شجون المسجون
وفنون المفتون

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد
ابن عربي الحاتمي
المتوفى ٦٣٨ هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين

المقدمة

الحمد لله الذي ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السَّجدَة: ٨، ٩]، ثم وهب منهم البالغين العاقلين قدرةً واختياراً ليمتحنهم في كلّ حين، فهم بالخير والشَّرِّ مُختَبرون، ليجزيهم بما كانوا يعملون.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبيَاء: ٣٥].

وتقديره: فيجازيكم بما تكسبون، فكُلُّ من يقع عليه الجزاء فهو داخل تحت الفتنة، مُعامَلٌ في سائر أوقاتهِ بالمحنة؛ من كافر وشقيّ، ومؤمن وتقيّ، وصِدِّيقٍ ونبيّ. وإلى هذه الثلاثة أقسام تنقسم الأنام.

قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقِعَة: ٧ ـ ١١].

فهؤلاء كُلّهم ممتَحنون، ولمّا كان هذا العالم يفنى، ومن كرم الكريم أن جعلهم يعملون فيه لما يبقى، صيَّرهم لأفعالهم فاعلين، وأرسل إليهم رُسلاً مُبَشّرين ومُنذِرين، بعد أن مكَّنهم ممّا خلقه كسباً لهم، وجعله لهم بإرادتهم واختيارهم إن شاؤوا مكتسبين. وشاء بمشيئته القديمة، أن تكون لهم مشيئة مُحدثة في كلّ حين، فوعدهم وتواعدهم على ما هم بمشيئتهم قد أصبحوا له عاملين. فهم في أفعالهم غير مجبورين، إلاّ ما شاء الله فهم عنه غير مؤاخذين، فآمن بقضائه وقَدَره جميع المقلّدين من المؤمنين، واعترف بعدله وفضله سائرُ العلماء المجتهدين، فهم أئمّة الدِّين، وورثة النّبيّين، والمهتدون الهادون بالكتاب المبين، فبيّنوا للنّاس ما به يعملون، إذا هم

ـ ما داموا في الدُّنيا ـ مُمتَحَنون. فأصحاب المشأمة بالخيرات الفانية مُختَبرون، وهم بها مُستَدرجون من حيث لا يعلمون، وبالشُّرور الدّانية يُفتنون، لعلّهم يَتوبون ويتذكّرون، قال تعالى في حقّ هؤلاء: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السَّجدَة: ٢١].

وأما أصحاب اليمينِ فإنّهم مفتونون بالخيرات ليرغبوا في الأعمال الصّالحات، ومُمتَحنون بالشّرور المختلفات لتكفير السّيّئات، وفي حقّ هؤلاء قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البَقَرَة: ١٥٥].

وأمّا المُقرّبون فإنّهم مفتونونَ بالخيرات ليكونوا من الشّاكرين، وبالشُّرور ليعودوا من الصّابرين. وفي حقّ هؤلاء قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمَّد: ٣١].

فشرور أصحاب الشّمال نِقَمٌ وتنقيص، وشرور أصحاب اليمين تكفير وتمحيص، وشرور السّابقين نِعَمٌ وتخليص، وخيرات أصحاب الشّمال حجابٌ وبَلْبَال، وخيرات أصحاب اليمين إعانة على الكمال، وخيرات السّابقين مواهبٌ وأفضال.

فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ [فاطر: ٤٥] خاصّ بأصحاب الشّمال دون أصحاب اليمين.

كقوله مُخصّصاً: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤] وذلك من باب العقاب لا التّكفير.

وعليه يُحمَل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ [البَقَرَة: ١٥٥] إلى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٥]، فخاصٌّ بأصحاب اليمين، وهو من باب التّكفير لا العذاب، وإن كان حكمه حكم العقاب.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمَّد: ٣١]، فخاصٌّ بالسّابقين، وهو من باب تعظيم الثّواب والفضل، كما لضدّهم من باب توفير العذاب بالعدل، فمصيبة أصحاب الشّمال تخسير وتدمير، ومصيبة أصحاب اليمين تطهير وتكفير. ومصيبة السّابقين توقير وتوفير. وقد بيّن الله تعالى بفرقانه فرقاناً بين مصيبة التّكفير ومصيبة التّوفير، في آية يعقلها الخبير، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

[آل عِمرَان: ١٦٥]. فكلٌّ من عند الله بقضاءٍ وقدر وعدل من الله. ومَن يكفر بالله يُضِلَّ قلبه بفتنتهِ، ومَن يؤمن بالله يَهدِ قلبَهُ بمصيبتهِ، والمُغيِّرون يُغيِّر الله ما بهم من فتنتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ [الرّعد: ١١] عقاباً لهم على ما قدَّموه من سوء الأعمال ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرّعد: ١١].

فسائر أفعاله تعالى مع عباده؛ إما فضل، وإما جزاء بما كانوا يعملون، ذلك أن لم يكن ربُك مهلِكَ القُرىٰ بِظُلْمٍ، وأهلُها مُصلِحُون، فسُبْحَان من خلق الفِتَنَ المختلفات من الشّرور والخيرات، وامتحن بها عباده في سائر الأوقات، ومكّنهم من اجتناب السَّيِّئات، واكتساب الحسنات، ليفوزوا إن اختاروا وعملوا بالباقيات الصَّالحات، وهداهم بالعقول باطناً إلى أفضل السُّبل، وأرسل إليهم ظاهراً ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النّساء: ١٦٥]. فلينظر الآن هذا الإنسان المأخوذ بالافتتان في كلّ آن، الممكن من الاكتساب في كل مكان، وَلْيَنْهَ نفسه عن الهوى ففيه الهوان، وَلْيَدْعُ الله تعالى في سائر الأحيان، راغباً في الجنَّةِ والرُّضوان، راهباً من الغضب والنّيران، والحمد لله المنّان، والصَّلاة والسَّلام على سيّدنا محمّد وآله وصحبه في كلّ زمان، من كلّ إنسان، بكُلِّ لسان.

أمّا بعد، فإني لمّا رأيت العالم بأسرهم مفتونين، وبكَسْبهم مُثابينَ ومُعاقبين، ورأيت من تمام النّعمة عليهم، أن فُتنوا بكلّ ما لديهم، وفوّض أمرهم في الاكتساب إليهم، اعتراني دَهَشٌ في طرب، وعُجْبٌ في عَجَب، وكنت على حالة أظنُّ الفراق، ولا أجد لدائي من راق، فأوصيتُ من حضر ليكتب ما خطر، فليتأمّل ذلك من يراه، ففيه له غنية إن شاء الله.

شعر: [من الطويل]

ومُـمْـتَـحِـنـي فـي كُـلِّ آنٍ وَحَـالَـةٍ ... يَراني أُسِيءُ الصُّنْع أو أُحْسِنُ الصُّنعا
فَـهـذي حَـيـاتـي كُـلُّـهـا لـيَ مِـحْـنَـةٌ ... فَـهَـلْ لَـذَّ لـي يـومـاً مُـعَـاشَـرَةُ الأفْـعى
دَعَـانـي بـأَمْـرٍ مِـنْـهُ دَاعٍ إلـى الـهَـوَى ... وَدَاعٍ إلـى الـتَّـقْـوى دَعـا وَحْـيُـهُ شَـرْعَـا
وَأَوْجَـدَ لـي مَـيْـلاً إلـى كُـلِّ وَاحـدٍ ... وَقُـدْرَة مَـقْـدورٍ قَـديـرٍ إذا يُـدْعـى
وقـالَ: جَـعَـلْنا ما عَلى الأرْضِ زِينَةً ... لِـنَبلُوَهُـمْ فانظُرْ لنفْسِكَ ما تَسْعى
فـهـذا وُجـودُ الامْـتِـحـان فَـكُـنْ فَـتَـى ... يـجـانـبُـهُ ضُـرًّا ويَـصـحـبُـهُ نَـفْـعـا

فمـا فـيـهِ إلاَّ مُـبْـتَـلًـى وَبَـلـيَّـةٌ فَخُذْ بالتُّقى عَقلاً وعَاصِ الهَوى طَبْعا
وذَرْ راحةً تَفْنى وَخُذْ بِنَصيحَتي وشَمِّرْ لهَا عَزماً وألْقِ لها سَمْعا
وإنْ ماطَلَتْ أو إنْ وَنَتْ نَفسُكَ اسْتَغِثْ بِمَنْ عَنْ هَواها يَستطيعُ لها مَنْعا
وَسَلْ باطِناً مِنْهُ الغِنى عن غِنى الوَرى فلمْ يَغْنَ مَن لمْ يَغْنَ عَنْ بَالِهِمْ قَنْعا
ولا تـنـظُـرَنْ إلاَّكَ مُـمْـتـحِـنـاً بـمـا لَدَيْكَ وجَاءَ الموتُ يقطعُهُ قَطْعا

ثمّ بعد ذلك شفاني الله تعالى من ذلك المرض، فعدت إلى ما أعتقد أنّه نهاية الغرض، وهو الاجتهاد في فهم معاني كتاب الله، من غير عدولٍ إلى تقليد أو ميل عنه إلى شيءٍ سواه، فلمّا كمل ما ظفرتُ به منه، وفهمته عنه، طلبني ملك الوقت ببأسٍ شديد على خيل البريد، من مسيرة خمسة عشر يوماً، وطلبَ منّي علماً لا قِبَلَ لي به، ثم سجنني عاماً بسببه، فجمعتُ لنفسي تذكرة بما وصل إليَّ، وفتح عليَّ، وسمّيتها: «شجون المسجون وفنون المفتون»، ولم أقيّد التَّرتيب فيها على وفق الواجب بل جمعتها جمعَ الحاطب، ليكونَ كلّ فصل قائماً بنفسه، يستفيد النَّاظر له بحسب نظره وحَدْسِهِ، وجعلتها ثلاث أبواب، لأنّها زبدة ما فهمته من الكتاب. الباب الأوّل في العمل، الباب الثّاني في العامل، الباب الثالث في المعمول له. وكُلّ باب فيه ممّا قبله، وبذلت جهدي في كشف ما عندي نصيحة لمن يراه، وحسبي الله.

الباب الأول
في العمل

اعلم أنّ الخواطر تعرض على القلب، وتنجلي بسرعة، فهي ممّا يخصّ القلب ممّا هو خارج عن قدرة الإنسان، فالخاطر هو ما لا يثبت إلاّ أن يربطه الإنسان. والرّاتب هو من الرّواتب التي تلزم القلب لزوماً راتباً، لا تكاد تقلع عنه، والعقائِبُ هي ما تعقب أفعالاً من الإنسان. فالخواطر إذا مدّت بالفكر تأدّت إلى الرَّواتب، فإذا امتدّت بالعزم تأدّت إلى العقائِب، فإن أعرض عن الخواطر مرّت كما تمرّ الرّيح، فلا يكون لها أثر، فالعقائِب قد تحدث على سبيل الجزاء، لأنّها تحدث بعقب الرّواتب التي تربطها الفكر، ولقد كانت أوّلاً خواطر، وهذا يعطي وجوب ملازمة القلب، لأنّه من باب الهُدى والضّلال وصاحب الكسب ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٥].

ولمّا كان ابتداء كلّ شيء إنّما هو من جهة القلب، وهو من جهة هذا الخاطر المتقلّب الّذي من أجله سُمّي القلب قلباً، وإن انضاف إلى ذلك غيره في سبب التّسمية، فنقول: إنّ من الخواطر ما يعرض من جهة المزاج مميّلاً إلى ما يوافق، فهذا إذا تمكّن سُمّي شهوة، وضدّه نفرة، ومنه ما يعرض لنيل رتبة، فإذا تمكّن سمّي همّة. ومنه ما يعرض باعثاً على فعل، فإذا تمكّن سمّي مشيئة. ومنه ما يعرض باستعجال اللّقاء فإذا تمكّن سمّي شوقاً. ومنه ما يعرض بتثبت حكم، أو شيء على ما هو عليه. فإذا تمكّن سمّي علماً. وإن كان متردّداً سمّي شكًّا، فإن عرض بذكر ما لا حقيقة له على سبيل الثّبات سمّي جهلاً. ولجميع الأخلاق والخصال خواطر، متى تمكّنت سمّيت بأسماء تخصّها.

واعلم أن منزلة الخاطر منزلة سماع صوت يقرع سمعك، ويمرّ، وتمرّ عنه، فكما لا يلزمك سماع ما يكون من كذب، أو محال إثماً، ولا يلحقك في ذلك لوماً، ولو كان ذلك بالعكس، فإنّه لا يفيدك بمجرّد سماعك إيّاه أجراً، إذ لم تقصد لشيء من ذلك، فكذلك الخواطر، إذا لم تبعثها ببالك، ولم تعد راتبة، لا يعقبها شيء،

وإنّما يجتهد الصِّدّيقون فيما يقوّي فهم خواطر الخير، ويقطع عنهم خواطر الشَّرّ، لأنّها أزمة القلوب، وفواتح الأعمال، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، أي اقتدوا بالذِّكر، وهو القرآن، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فإذا أبصروا نهوا نفوسَهم. والطّيف أوّل النّزعة مثلما يعرض منه بالطَّيف الذي هو خيال يُرى في النَّوم، لا حقيقةَ له يُنسَبُ إلى المحبوب سوى صورة ما، فافهم هذا جيّداً.

واعلم أنّ اللَّمَّةَ من قولهم: ألمَّ بمكان كذا: إذا نزل به على غير إقامة، ولا يُقال ذلك لمن مرّ عليه، فافهم قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] فليس المراد بالاستثناء أنّهم لا يجتنبون اللَّمَمَ، بل معناه أنّهم يجتنبون الكبائر، لكن إن نزل أحدهم بصغيرة فإنّه لا يقيم عليها، بل يقلع عنها عاجلاً، فالخاطر الّذي يجرُّ إلى حديث النَّفس هو لَمَّةٌ من الشيطان، إذ هو بمنزلة المنزلة التي لا إقامة فيها، ولا يقال ذلك على الخاطر الّذي لا يجرُّ إلى حديث النَّفس، لأنّ ذلك مرور لا نزول، فإن نزل فهو إلمام. فإن أقام فهو إغواء، لأنّه ممدود، ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، فقد صار بمنزلة العقائِب، عوقب به صاحبه لربط الخاطر الأوّل، فليس لعاقل أن يستهين بأوّل خاطر فينقاد له، فإنّ ذلك يستدرج إلى ذهاب معرفة الله من قلبه، ويبقى رِقًّا لشياطين شهواته ﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سَبَإ: ٤١]. وعلامة ذلك أن يثقل عليه عمل الآخرة وإنْ خفَّ، ويخفّ عليه عمل الدُّنيا وإن ثَقُلَ. والدُّنيا عبارة عمّا يفنى فاعرفها، فمن أحسَّ بشيء من ذلك فعليه بالحِمْيَةِ من جميع الخواطر كما يُحمى المريضُ المُدْنَفُ، وليعد إلى حفظ قلبه وحراسة فكره ليلاً ونهاراً حتّى يرجع، يجد هذه الحراسة دأباً له، نوماً ويقظةً، ويتحقّق الشّفاء كما كان يتحقّق ضدّه، ثمّ يستمرّ حذراً، فمتى لم يدفع الخاطر بجهد شديد وحراسة دائمة كان أشدّ عدواً، وهذا أفضل جهاد وأبلغه. ومن أراد ذلك فليبتدر إلى ثلاث خصال:

الأولى: مبادرة كلّ خير يخطر بباله، فإنّه بمنزلة البَذْر.

والثّانية: منع الشّهوات والإسراف في الأكل والشّرب والنّوم.

الثّالثة: مجالسة العلم.

وأنت إذا اعتمدت على ما أوصيتك به من مراقبة الخاطر، علمت من هناك جميع ما تحتاج إليه، واستغنيت عن هذا الكتاب وعن مثله من كلّ وصيّة وعلاج. ومن جرّب رأى وصدّق، ومن عزّ عليه هذا الأمر فعليه بالذِّكر.

واعلم أنَّ حديث النَّفس هو ذِكْرٌ من فعل الإنسان يطابق الخاطر، وأنَّ في القلب ضروباً من الأذكار ليست بمنزلة حديث النّفس، بل يحتاج الإنسان أن يتكلّف لها من الحضور ما يشهد به حاله، فيصدق عند نفسه، لأنّه يرى الكائنات تذكر معه بذِكره، إذ يرى حاله فيها، فلا يحسبنَّ النّاظر في هذا الكتاب أنّ مجرى الأذكار كلّها مجرى حديث النّفس، فيشتبه عليه وجه الصَّواب فيكون ذاكراً ناسياً.

واعلم أنَّ كلّ عمل لا بُدَّ أن يتقدّمه علم، وأنَّ باب كلّ علم إنما هو من القلب، وهو من هذا الخاطر، وإذ قد فهمت من الجملة المتقدّمة أنّ الخاطر لا يعتدّ به، بل هو يمرّ أبداً، يحكي شيئاً وضدّه وغيره، حتّى كأنّه يحكي مرور العوالم من الخيرات والشّرور، فمتى ربط الفكر خاطراً ما كان هذا من كسب القلب، ثمّ صار هذا الخاطر الأوّل المربوط بالاختيار من الرَّواتب، ومن هاهنا إن لم يقطع صار مؤدّياً إلى العقائب فيعاقب به القلب أو يُثاب بحسب ذلك الاكتساب. فمن أوّل خاطر يبتدىء يجب أن تلحظ كسبك، فإن كان ممّا يفنى فهو عليك، وإن كان ممّا يبقى فهو لك. ومن عرف الكتاب العزيز عرف به الخواطر، فكان بهذا السّير على صراط مستقيم لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فأوّل سلوكِ الصّراط المستقيم هو اعتبار أوّل خاطر يخطر في القلب، فمتى لم تجده راجحاً في العقل بحكم الكتاب رجعتَ عنه، فهذا الرُّجوع سلوك في الصّراط لأنّه تذكّر عند مسّ طيف من الشَّيطان، وهذا ينبوع الأعمال، وأوّل الكسب، وبدء النُّور والظُّلمة، ومنشأ كلّ خير وشرّ، وأوّل الإرادة والاختيار والمشيئة الّذين من أجلهم كنتَ مكتسباً، وبهم ظهرتَ، ولولاهم ما أُمِرتَ ولا نُهيتَ، ومن هاهنا ظهرت فضيلة الرُّسُل والكُتب، ولزم الامتحان، فكُن أبداً واقفاً على صراط مستقيم، ملازماً حراسة قلبك أن تربط به خاطراً أوّلاً مذموماً فتجعله راتباً، فهذا أوّل كسبكَ، ومن هنا تبدأ العقائب ويستمرّ الأمر حتّى يقع الطَّبْعُ على القلب بالكسب، وسُمّي طبعاً لأنّه يصير بمنزلة الطّباع للإنسان. لأنَّ الانتقال عن الطِّباع عسير جدًّا إن أمكن، فيكون هذا قد طُبع على قلبه بكسبه. ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]، ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النّساء: ١٥٥]، فافهم هذا جيّداً، وقِفْ معه ولا تهمله، أو تغفله، أو تُسامح أو تنسى، أو تغلط، أو تتأوّل ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النّساء: ٨١]، واسأل الله تعالى ذلك بالتَّالِ والحال في كلّ آنٍ وحال.

مَحاسن باب الخير والشَّرّ، وأُسّ النَّفع والضّرّ، وأصل الأوّل والآخر، وجملة الباطن والظّاهر، منوط بالفكر من كلّ إنسان، نوماً ويقظةً في كلّ آن، فَنَزِّهْهُ عن

الاشتغال في القول والفعال، والقطع والوصال، وفي سائر الأحوال، ولو في لمحة خيال. فالدَّنيّ الدَّاني هو الأوّل الفاني. والسَّنيُّ هو الآخر الثّاني، ولقد وضع المعاني تعلّقها بالمباني، كما رفع المباني تضمّنها للمعاني، وهنا يقال: نظم:

[الخفيف]

نَـزِّهِ الـفِـكْـرَ عـن مَـحَـلِّ الـفَـنَـاءِ إنَّـمـا الـفِـكْـرُ سُـلَّـمٌ لـلـبَـقـاءِ
حَـيْـثُ فَـكَّـرْتَ أنْـتَ ذَلـكَ فـافْـقَـهْ مـا الَّـذي فـيـهِ فِـكْـرَةُ الـفُـضَـلاءِ

موعظةٌ وعلاج:

كيف تستمدُّ لطائف المعارف ووجهُ قلبك مُتوجِّهٌ إلى كثائف المآلف؟ وكيف ترحل إلى أوج المواهب والعوارف، وأنت مُثابر على حضيض العوائد والمتالف؟ وكيف تجول في ميدان السَّرائر، وفكرك محصورٌ في سجن الظّواهر؟

وقال: نظم: [السّريع]

اجْـنَـحْ إلـى قَـلْـبِـكَ واعـمـل عـلـى أنَّـكَ لا تُـفْـكِـر فـي الـفـانـي
وغُـصْ إلـى الـبـاطِـنِ عـن ظـاهـرٍ لـتـعـرفَ الأوَّلَ بـالـثّـانـي

إيضاح ووصيّة:

الفكر سلّم القلب، فإن رقي به إلى الظّاهر انقطع، لأن حَدَّه الأجسام، والفاني وإن رقي به إلى الباطن فلا حدَّ له، بل يستمرّ في إدراك المعاني، ويوصله إلى كلّ أوّل قطعه للثّاني، فإذا بلغت هذا المقام ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤].

وقال في المعنى: نظم: [السّريع]

وَوَجِّـهِ الـفِـكْـرَ إلـى داخِـلٍ واجْعَلْ نَصيبَ القَلْبِ قَطْعَ النَّصِيبْ
مـا بَـعُـدَ الـمَـعْـشـوقُ مِـن عـاشِـقٍ وَكُـلُّ قَـلْـبٍ فـيـهِ مَـأْوى الـحَـبـيـبْ
فـاقْـطَـعْ عَـنِ القَـلْـبِ جـمـيـعَ الَّـذي يَـقْـطَـعُـهُ عـنـكَ وأَنْـتَ الـقَـريـبْ

علاج:

الشَّهوةُ تُطفىء نار الفكرة الرَّديئة، كما تُطفىء نور الفكرة الصّالحة، فاجتَنبْها داءً، واستعملها دواءً.

نبأ:

الملائكة يشهدون بالذِّهن ما يشاهده البشر بالفكر.

مضارع:

أوّل خاطر كأوّل نظرة ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه: ١٣١].

حماية:

كيف تغيب إذا جعلت ما يغيبك مُحْضَراً، وما ينسيك مذكراً.

معين:

هو الصَّبر في كلّ آن، قَدَرُكَ صَبْرُك، صَبْرُكَ سِرُّك، إنّما أتيت لتصبر.

نظم: [الطويل]

إذا ما حَياةُ المَرْءِ زيَّنَها الصَّبْرُ فَقَدْ لَذَّ لي عُسْرٌ كما لذَّ لي يُسْرُ
وعادَ الرِّضا في السُّخْطِ والقُربِ والنَّوى وفي المُرِّ حُلْوٌ والَّذي يُشْتكى شُكْرُ

إخبار:

مقدارُ كُلِّ امرىءٍ حديثُ قلبه.

تيقُّظ:

قد يخطر بالبال في بعض الأحوال أنَّك كأحد الرِّجال بمجرّد المقال، مع الغفلة عن المحاقَّة في الأفعال، فتظنّ من أجل معرفتك بما يجب أن تكون عليه من الحال أنَّك كامل في الأحوال، وهذه حالة الشُّعراء الذين هم ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٥، ٢٢٦].

حجّة:

يا هذا! أنت إذا نِمْتَ ذهبت عنك هذه الدَّعاوى كلّها، ولا تقدر أن ترى ما تريد، وسلك بك في مسلك من الكذب والأمثلة، أو في حالة عدميّة مهملة، فكيف إذا مِتَّ.

وَصيّة:

ما لك من عمرك إلاّ ما صفَا، وليس مع أخلاط الجماعات صفوة، ولا مع كثرة المال فراغ.

لا تسمح بأوقاتك للبطالة، ولا للبطّالين، ولو كبرت مرتبتهم. إن لم تَخْلُ من كلّ ما شغلهم لم تُشرق فيك أنوار الصَّفاء.

ليس في هذه الدّار موضع خلوة، فاتّخذهُ في نفسك. ليست الشّواغل بضارّة لك إذا خلوتَ منها وأنت فيها، قد تحصل الخلوة في الجمع، لكن لمَن قُواهُ لا تفتر ولا تفترق، فلا تقفنَّ مع مألوف، ولا تثِقَنَّ بمعروف، ولا تتّكِلَنَّ على أحدٍ أو شيءٍ، وانظر إلى كُلٍّ كأنّه عدوٌّ لك ولا بُدَّ من صداقته، فـ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦] ادْفَعْ بالّتي هِيَ أحْسَنُ، وكن واحداً كاتماً غنيًّا بذاتك لا من الخارج، واحذر أن يقيّدك حال أو قال أو مال أو آل، فإنّما تصل بالتّجريد عن كلّ ما تريد.

واعلم أنَّ كُلَّ مُرادٍ لك سوى رضوان الله تعالى هو بمنزلة إلهٍ، والسّابق قد قطع العلائق، وإنّما التّقرّب بالصُّور من شعار المشركين، إنّما نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرِّبونَا إلى الله زُلْفَى، ومن تبرّأ من هواه شهد أن لا إله إلا الله، وهذا الفَخّار مصيره إلى الانكسار.

كشف مفضح ولفظ مفصح:

في سوس النُّفوس عشق كامن، هو سِرٌّ باطن، فمتى علّقته بمعلوم سَلبَ وجَذبَ، حتّى غلب وحجب، فاحذر التّقيّد بالصُّوَر ممّا بطن وظهر، ولو عَلا في حُسنه وبهر ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فُصّلَت: ٣٧].

حديث:

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أدْنَى أهْلِ الجنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ ينظرُ إلى جِنانه، وأزواجِهِ، ونعيمِهِ، وخدمه، وسُرُرِهِ، مَسِيرة ألف عام، وأكرمهم على الله تعالى من يَنظر إلى وجهِهِ بكرةً وعَشيّة**»[١].

تحقيق:

اعلم أنَّ المتأمِّلَ لهذا الحديث من المؤمنين به لا يرضى أبداً أن يكون أدنى، وهو يقدر أن يكون أكرم، وتحقيق ذلك أنَّ ما هو هناك مبنيٌّ على ما هو هنا، فمن كان من المؤمنين هاهنا نَظَرُه إلى جِنانه وأزواجه ونعيمه، وغير ذلك، فهو هناك كذلك، ومَن كان قلبه مع الله تعالى، وهو دائم النَّظَر إليه، معتمداً رضاه فيما فرضَ عليه، فهو أيضاً هنالك على مثل ذلك، فاختر لنفسك ما شئت، فَستُرَدّ إلى ما رضيت، أو تهوي إلى ما هويت.

---

(١) رواه الترمذي في جامعه الصحيح، حديث رقم (٢٥٥٣) [ج٤ ص٦٨٨] ورواه أبو يعلى في مسنده، مسند عبد الله بن عمر، حديث رقم (٣٣٣٠) [ج٥ ص٤٣١] وحديث رقم (٢٥٥٣) [ج٤ ص٦٨٨]. ورواه غيرهما.

نظم : [دوبيت]

يا مُمْتَحناً بكُلِّ ما بينَ يديهِ والأمرُ مِن الآمِر قد رُدَّ إلَيْهِ
مهما كسبتْ يداهُ في عالمهِ هذا فهناكَ يرجعُ الكسبُ عليهِ.

فصل :

اعلم أنّ إنساناً نام عن وِرْدِهِ، فرأى في منامه كأنَّ ولده سقط من علوّ، فانزعج واستيقظ مبادراً إلى الحمد والصَّلاة شكراً لكونِ ما أصابه إنّما كان في المنام، فَضُرِبَ له مثال اليقظة بما رآه في الأحلام، وتحقّق أنَّ مصائب الدُّنيا في الأهل والولد والمال، وفي سائر الأحوال، إنّما هي جواذب ودواعٍ أنعم الله بها على الغافلين ليُجيبوا الدّاعي، وليس الأمر بالحقيقة في يقظته، إلاّ كما رآه في نومته، وكذلك حال مَن نُبِّهَ من غفلته، في نومه أو يقظته، بنعمته أو نقمته، كلّ ذلك الشَّيء داعيةٌ إلى الله، وجواذب إليه عمّا سواه، وهذا ممّا يجب أن يُشاهد في كُلِّ آن، فهو أنفع ما وَلَج في سمع إنسان، ولقد تكرّرت به أمثال كثيرة في القرآن.

نظم : [الكامل]

يا مَنْ شُغِلْتَ بهِ عَنِ الأشْياءِ وَحَلَتْ بهِ لي في الهَوى بَلْوَائِي
كُلٌّ إلَيْكَ يَقودُني بِجَواذِبٍ عَنّي مِنَ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ
طابَ انْتِهاكي فِي هَواكَ ولَذَّتي جَمْعي عَلَيْكَ بِفُرْقَةِ الأهواءِ

مِثال :

اعلم أنّه كما تقدّم علم الرّائي في منامه ما سيقع قبل وقوعه، ولم يَجُزْ أن يُقال : إنّ العلم أوجبَ وقوع الواقع، أو الواقع تبع العلم، فكذلك فُهِمَ بهذا المثال أنّ الموجب لوقوع الواقع من الإنسان ليس هو العلم القديم، بل العلم القديم تابع للمعلوم، وإن تقدَّم، كما أنَّ علم الرُّؤيا تابع للمعلوم، وقد تقدّم. فاتخِذْ ذلك ميزاناً، واجْعَلْهُ لك بُرْهاناً.

نصيحة شافية :

إذا اشتبه عليك أمر فلم تعلم هل هو ممّا يجب أن يُرْغَبَ فيه، أو عنه، فاخطر ببالك خطور باغت الموت، إذ لا محيص عنه، ولا مهلة، فإن كان ذلك الأمر ممّا يبقى معك في ذلك الآن، فابقَ معه، أو ممّا يفارقك ففارِقْهُ.

نظم في مثل ذلك: [السريع]

يـا مَـن تَـقَـضَـى عُـمْـرُهُ فـي ضَـلالْ ... ويَـدَّعـي مـا تَـدَّعـيـهِ الـرِّجـالْ
يَـسـيـرُ سَـيْـرَ الـقَـوْمِ فـي زَعْـمِـهِ ... وحـالُـهُ مـن غـيـر شَـكٍّ مُـحـالْ
عِـنْـديَ والـلّـهِ الـدَّواءُ الّـذي ... يَـشـفـي مِـنَ الـدّاءِ الـدَّوِيِّ الـعُـضـالْ
افـرضْ بـأنَّ الـمَـوْتَ عـايـنـتَـهُ ... وقَـدْ تَـقَـضَّـى كُـلُّ قـيـلٍ وقَـالْ
وعَـادَتِ الـدُّنـيـا ولَـذَّاتُـهـا ... حَـقِـيـقَـةً بـالـمَـوْتِ شـبـه الـخَـيـالْ
فَـكُـنْ عـلـى ذلـكَ واعـمـلْ لَـهُ ... فـي كُـلِّ آنٍ وعَـلـى كُـلِّ حـالْ

تقوية:

إن عجزت عن ذلك لضعفٍ أو إلف أو غير ذلك، فعليك بالإخلاصِ في الدُّعاء إلى الله تعالى، الذي لا شكَّ تعرفه إذا وقعت في خطبٍ جسيم، وهولٍ عظيم، وتقطّعت بك فيه الأسباب، وغُلِّقت دونك الأبواب، أوَما تراك كيف تدعو بحضورٍ لا غيبة به، وتَوَجُّهٍ لا التفات معه، ووُجهةٍ لا شركة فيها، فإنَّك لا تدعو معدوماً، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤١].

زيادة:

أُدْعُ الله الذي لم يتناهَ في الأوهام بتقدير، ولم يمثُلْ في الأفكار بتصوير، ولم تستخرجْهُ نتائج العقول بالأفكار، فتجعله شبحاً محدوداً لا شخصاً مشهوداً، ولا وقَّتَتْهُ الأوقات، فأجرت عليه الأزمنة، ولا أحاطته الجهات فتضمّنته الأمكنة، بل هو الفاطر أبداً، ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

مَثَل وتفهيم:

الفِكر كالعبد إذا لم تكدَّهُ مَرَدَتُهُ البَطالة، وإنّما تنقسم الأفكار بتقسيم المآرب. والموحد بالفكر من جعل الهموم همًّا واحداً، ففكّرْ فيه.

فأوّل ذلك: أن يفكّر في عيوب نفسه ومساقط هواه، وما يحتاج إلى تكملتها به، فإنَّ الغرضَ سلوك سبيل الأنبياء؛ وسبيلهم سياسة البلدان والسُّكان، ومَن لم يَسُسْ نفسه كيف يسوسُ العباد، ومن لم يَسُس بَدَنَهُ كيف يسوس البلاد.

الثاني: إذا خلا بنفسه بعد معرفتها وإصلاحها فلا يفكّر في شيء من أمور الطّبيعة وليُمِتْ نفسه عن كُلِّ رذيلة ليَحيا بالفضيلة، وليعلم أنّه إذا خلا بنفسه، وتخلّى

بسوسهِ، تختال الطّبيعة في جذبه إليها، وكلّما لاح لطيف روحانيّ باقٍ جذبت بمثله إلى كثيف جثماني فانٍ، فليجذف ولا يظرف.

وليعلم المَغلوب بكثرة الوساوس والأفكار، أنّه لا يفيده الهرب منها، لأنّه إنّما يقطعها حيناً، وتقطعه أحياناً، وإنّما يفيده الهرب من الحظوظ، فإذا قطعها انقطعت عنه الأفكار، ولا ينال ذلك إلاّ بحزم، وعزم صادق على الموت.

مثال:

الصِّدق له وجهان؛ أحد وجهيه ما كسبه بالمجاورة، والآخر كبقيّة الأحجار، وكذلك القلب.

تعليم:

صور الأمور الدينيّة كصور المشمومات، فلا تحصل من صور المشمومات مهما قدرت، وأنت لا تفرّق بين رائحة كل واحد ورائحة الآخر، فإنّ المقصود بالصُّور الأرايج.

فصل:

إنَّ وراء نطاق النُّطق ما هو أدقُّ من أوتار العنكبوت.

نظم: [الطويل]

أَلَـمْ تَـرَ أنَّ الـبَـدْرَ يـنـظـرُ وَجْـهَـهُ ... بِصَـفْـوِ غَـديرٍ وَهْـوَ في أُفْـقِ الـسَّـمـا

مثال:

اعلم أن كشف الأولياء ـ رضي الله عنهم ـ يُمثَّل بالسِّراج في آحاد البيوت ليلاً، وكشف الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ بمنزلة نور الشَّمس العام على الموجودات نهاراً. والنّاس بمنزلة الطُّيور المُستعلي بعضها على بعض بحسب القُوَّة المعطاة لكلّ واحد منهم من حيث جنسُهُ وخلقتُهُ، فشتّان بين النَّاظِر بالنُّور السُّفليّ جزئيًا، وبين النَّاظر بالنُّور العُلويّ كُليًا، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: ٤٠]. ومُرادُنا بالجَعْلِ هاهنا يرجع إلى النُّور الخارج، لا إلى نور البَصر، لأنَّ نورَ النَّارِ هاهنا من جَعْلِ البشر، ونور الشَّمس من جَعْلِ خالِقِ الشَّمس والقمر.

تلخيص:

الأُبُوَّةُ قسمان: أبٌ روحانيّ، وأبٌ جسماني، فلو كانت السّعادة تحصل بالأب الجسمانيّ لسعد بها اليهوديّ والنّصرانيّ، فالأب الرُّوحانيّ على التّمام هو النبيّ عليه الصّلاة والسّلام، ونحن في بطن الكون كالجنين، والتّكاليف الشّرعيّة تكمل الصُّورة الرُّوحانيّة. ولهذا جعلت الصَّلوات الخمس على عدد الحواس الخمس، فلنحرص على أن تكون الصّورة كاملة ليفرح بنا أبونا عند الولادة.

تخصيص:

الإنسان لوح تنتقش فيه الملكوتيّة وما تحتها وما فوقها، فالملك جزؤه، وله بالجسم ملك آخر هو المتصرّف فيه بالاختيار، وبالعقل ملك آخر لا تحيط به الأفكار، يتصرّف به في الجسمانيّات، فبهذا سخّرت له، وتفضّل به على الرُّوحانيّات، ولهذا أُسجدتْ له، فهو بالذِّكر ملك، وبإحاطته لما دونه فلك. ولمّا فات الجسمانيّات، وفاق الرّوحانيات، تخصّص بأسماء الصِّفات، وبهذا شهد النبيّ الكريم، إذ ما في الملائكة مَن اسمه رؤوف رحيم، فسبحان من أبدع هذا البشر، وأقدره على التَّقمُّص بسائر الصُّور، ودلَّ عليه بالعيان والخبر، فبطنَ وظهر، وكشف وستر، وضعف وقدر، ونهى وأمر، وأطلقَ وأسر، وغاب وحضر، وجحدَ وأقرّ، فقفا الأثر، فعَلا وبهر، ودنا واستمرّ، فانقطع الخبر.

رسول:

كما أنَّ الله تعالى أوحى إلى رسوله الكلّيّات، وأحال عليه في بيان الجزئيّات، كعدد ركعات الصّلوات، كذلك ترتيب أصحاب الولايات، فيما يأتون به من الكرامات العلميّات والعمليّات، وذلك حوالة عليهم من أصحاب النُّبوَّات، تفصيلاً للوقائع الوجوديّات، ونسبة الهبات إلى النبوّات، كنسبة الجزئيّات إلى الكلّيّات، فلا يغلطَنَّ غالط تفرّد بإحدى الدّرجات فاستغنى بزعمه عن الشّرعيّات، فليحذر السّالك وليحترسْ، فالجزء في الكلّ، ولا ينعكس.

من ملخّص مظفر بن سنان في الرّدّ على الفلاسفة:

الفلاسفة قسموا الأمور إلى واجب وممكن وممتنع. فقالوا: الباريء واجب الوجود بذاته، والعالم ممكن الوجود بذاته، ووجوبه بواجب الوجود، والوجوب له كالظّلّ عن الصُّورة، والنّهار عن الشّمس، وهو علّة لوجوب الممكن، والعلّة غير

متقدّمة على المعلول الذي هو الممكن الواجب الوجود، بواجب الوجود إلا كتقدّم الصّورة على الظّل ملازمة له، وأنّ الممكن إمكانه هو بذاته، ليس لواجب الوجوب قدرة على إمكانه، إذ هو ممكن لنفسه، فليس إمكانه مقدوراً له، وإنّما وجوبه بوجوب واجب الوجود. وأنكروا أنّ الله تعالى فاعلاً على الاختيار، لأنّه لو كان كذلك، وفعل بعد أن لم يكن فعل، اقتضى مرجّحاً ومدَّة.

النّقض:

نقول لهم: الوجوب في اصطلاحكم حالة غير حالة الإمكان، وهو أمرٌ طارىءٌ على الممكن، والواجب واجب بنفسه، والممكن ممكن لنفسه، وهما قائمان متماثلان، فانتقال الممكن إلى الوجوب يوجب مرجّحاً لواجب الموجود، وهذا نقضٌ لما توهَمْتم، ومعارضة لما أسّستم، وانقلبت المطالبة لكم بحالها في الممكن كالمطالبة في المختار، وأنّه يوجب المدّة كما ادّعيتم من أنّ الاختيار يوجب المدّة، والتّرجيح يقتضي المرجّح. فبانتقال الممكن إلى الوجوب ألزمتم كما ألزمتم بزعمكم، وإذا كان الواجب واجباً بنفسه، والممكن ممكناً بنفسه، ولا قدرة له على إمكانه، لأنّ له المعيّة لا التبعيّة بعد المعيّة، وهذا تناقض لأنّ واجب الجود عندكم علّة لا فاعل بالاختيار، فكيف وجب وجود الممكن، وهو بمعنى المعيّة حتّى صار بمعنى التبعيّة، والبارىء علّة لا فاعل على الاختيار، وهذا يؤذن بقدم العالم، وأنّه مع واجب الوجود. وقولهم بوجوبه بعد إمكانه تلبيس منكم على من قصر فهمه عن دحض تمويهكم، فمن المحال أن ينتقل الممكن إلى الوجوب، والفاعل لا اختيار له في انتقاله، والواجب الوجود بذاته أعلى ممّن هو ممكن منتقل إلى وجوب، فذلك تغيّر من ذاته بذاته، موجب الوجود لذاته وهذا خلفٌ.

وبعد، فإن كان الممكن قديماً، فالقديم لا يؤثّر في القديم، وإن كان محدثاً فذاتُه مُحدثةٌ بإحداث القديم الفاعل بالاختيار، وبطل الوجوب، والعجب من الحدث الضّعيف أن يروم بذهنه أن يُشرف على قدرة المحدث القديم الحكيم. ليدركها بإحاطتها القاصرة، وعقله المحدث الضعيف المحجوب بحجاب الحدث، والعالم يشهد على ذاته بكونه مفعولاً لفاعل مختار، إذ حوادثه ظاهرة، وليست حوادثه سابقةً لحوادثه، وما لم يكن سابقاً للحوادث فهو حادث.

وأيضاً نقول: إنّ الممكن بذاته في الأذهان لا يخرجه إلى الأعيان إلاّ فاعل مختار، فهو في الأذهان واجب الإمكان، ولا واجب في الوجود العيني ولا الذهني،

وواجب الإمكان لا شكّ أنه معدوم ذهناً وعيناً، وموجبه يتقدّم عليه ويختاره، ونَفْيُ ذلك يلزم ثبوت المعيّة والوهم، والحامل على تصوير كيفيّة إحداث المحدث محالٌ ممّن رامه، إذ ليس له وسيلة إلى الاطّلاع على كيفيّته، لأنّه فوق طور العقل، وإذا لزم العجز عن كيفيّة الإحداث، فكيف لا يلزم عن كيفيّة المحدث سبحانه في ذاته وصفاته إلاّ من طريق الأدلّة الموصلة إلى الإقرار بوجوده، بدليل صنعه الظّاهر الإحكام، المتقن التّقدير بغير إحاطة، ولذلك عجزوا عن إدراك محدث بغير مادّة ولا مثال، تعالى الله، لا إله إلاّ هو ربّ العالمين.

نظم: [الطويل]

شَفِيعي رَسُولَ اللّهِ والعَفْوُ حَاجَتي ... ولـيـسَ إلـى رَدِّ الـشَّـفـيـعِ سـبـيـلُ

تعليق:

في بحث وقع مع من يدّعي أنَّ الوجود مظاهر الحقّ سبحانه، ويظنّ أنّه فهم المراد، وذلك إنّما قيل للإنسان: هو المحتجب بالقوّة النّاطقة، لكونها أدلّ عليه من غيرها من بقيّة أفعاله، والأدلُّ على الشّيء يبقى حكمه حكم الجائز له، فكان المجوز فيه من جهة الدّلالة حالٌّ فيه كحلول الأجسام في الأجسام، أعني اللّطيفة في الكثيفة، كالهواء في الإناء الفارغ، فأعلى العبارة هاهنا أن يُقال: هو محجوب بالقوّة النّاطقة، لدلالة النُّطق على موجود حيّ ناطق بالإرادة من غير شكٍّ. ولهذا أقسم الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذّاريَات: ٢٣]، وهذه عبارة إنّما جازت على الإنسان من جهة التّوقيف الّذي اضطررنا إليه ضرورةَ التّعريف، ونفس المراد إنّما هو غير ذلك، فالنُّطق حجابٌ للنّفس من جهة أنّه دالٌّ عليها لا من جهة حلولها فيه، إذ النُّطق صفة لها، وهو قائم بها، والشّيءُ لا يحلّ في صفته، أو يقوم بها، فلا يجوز لعاقل أن يفهم من قول القائل: الإنسان هو المحجوب بالقوّة النّاطقة حلولاً بحيث يجعلها جسماً لروح، أو إناء لريح، بل بفهم المدلول من جهة أنَّ النُّطق فعل ظاهر لفاعل بالإرادة، وكذلك احتجاب فاطر السّموات والأرض تعالى ممّا برأ، بل مُرادنا بهذه العبارة دلالة على الصّانع لا حلول، إذ المحسوسات أظهر للحسّ، وأوقع في النّفس، وأقرب إلى التّعريف، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعَام: ٧٩]، ولم يقل للسموات، أو لمن في السّموات، وإن جاز أن يقال: إنّه تعالى في كُلِّ شيءٍ من ذرّةٍ أو خطرةٍ، لكن جواز دلالة على مبدع، وافتقار إلى صانع، إذ كُلُّ ذرّة باطنة أو ظاهرة، شاهدة ذاتها على ذاتها، بأنّ لها صانعاً،

ولا شكَّ أنّ الكتابةَ تدلُّ على الكاتب، ولكن ليس الكاتب في الكتابة بوجه، ولا الكتابة في الكاتب، إلاّ بالقوّة التي هي غيهب هذا، مع بعد المثل من الممثول لأنه فوق طور العقول.

وإذا كانت جزئيّات الكليّات دالّة بأنواعِ الدّلالات على صانع في سائر الحالات، وعلى افتقار مطلق إلى غنى مطلق ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠]، فلا غرو من هذا الباب أن يقال: هو المحتجب بخلقه، كما قلنا: إنّ الإنسان يحتجب بنطقه، وإنّما جاز هذا التّمثيل من جهة الدَّليل، لئلا يفضي الأمر من جهة التّنزيه إلى التّعطيل، فسُبحان من ضرب بخلقه الأمثال، وتعالى عن المثال، وجلّ الذي جلَّ عن الحلول محتجباً بفعله، وهو الّذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشّورى: ١١]، وإذا تنزّه عن الاحتجاب بصفاته مخلوق ضعيف بهذا المثل الأجلى، فكيف لا يتنزّه عن مثل ذلك خالق لطيف، ولِلّهِ المثل الأعلى، فسبحان الباطن الخفيّ عن كلّ ما يلاحظه من الصِّفات والأسماء، وهو الظّاهر الجليّ بسائر جزئيّات ما في الأرض والسّماء، الّذي لا تتسلّط عليه أفكار العقلاء، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

إيجاز: [الكامل]

الكلُّ أَبْدَع هاهُنا من أَجْلِنا ... وهُناكَ والدُّنيا هي المفتاحُ
حُجُبٌ تُشيرُ إلى اللَّطائفِ فاختَفَتْ ... أرواحُها وتَبَدَّتِ الأشباحُ
صُوراً ففي أشْبَاحِنا أشْباحُها ... مَثَلٌ وَفي أزواجِنا الأرواحُ

علاج: [الخفيف]

يا ضَعيفاً أعْمالُهُ حَجَبَتْهُ ... بِهَواهُ عَنِ الإلهِ تَعالى
طَهِّرِ الفِكْرَ عن سِواهُ وَقُلْ ... قَوْلاً سَدِيداً يُصلح لَكَ الأعْمَالا

حال: [دوبيت]

ما أقلَقَني الشّوقُ إلى إيائي ... إلاّ ونَظَرتُ في زلالِ الماءِ
مُعنَّايَ مولَّهٌ على مَعنائي ... ما الكونُ وما وجودُهُ لولائي؟

عاشق: [السريع]

أَوْدِعْ فؤادي حُرُقاً أو دَعِ ... نَفْسَك تؤذي، أنتَ في أضْلُعِي

واحبسْ سهامَ اللَّحظِ أو فازِمِها   أنتَ بما ترمي مُصابٌ معي
مَحَلُّها القَلْبُ وأنتَ الَّذي   مَسْكَنُهُ في ذلكَ المَوْضِعِ

دعوى: [الخفيف]

مَن تخلَّى ثمَّ استعدَّ رآني   قد خَرقتُ الأفلاكَ بالتَّحديق
وخَلعتُ الأفلاكَ والملكَ جميعاً   والهَوى والحظوظَ خلعيَ زيقي
وَتَوحَّدْتُ بافْتِقاري غَنيًّا   وتَرَكْتُ الوجودَ عَن تحقيقي
وجمعتُ المقالَ والحالَ والفعـ   ـلَ وما يقتضونَ جَمْعِيَ ريقي
وجَعلتُ الجميعَ تحت جِذائي   في مقامِ للجَمْعِ والتَّفريقِ
عَبد حقٌ والرَّبُ حقٌ تعالى   مِنْ جميعِ الوُجودِ عَن تَدقيقِ
أنا لا أزالُ حَيًّا عليماً   حَاكِماً بالمَجَازِ والتَّحقِيقِ

عجيب: [البسط]

تَرَى عَلى يَقْظَةٍ ما في المنامِ تَرى   أوْلْ فَما في غَدٍ تَلْقاهُ في النَّومِ
هَذا وذاكَ مَنَامٌ أنتَ نَاظِرُهُ   لَكِنْ نَقلْناكَ مِنْ نَوْمٍ إلى نَوْمِ

بيان: [الطويل]

إذا نِمْتَ تلقى فيكَ ما كنتَ يقظةً   تُشَاهِدُهُ جَهراً فتَشْهَدهُ سِرًّا
كذاكَ إذا ما متَّ مُغْرًى بِحالةٍ   تُرَدُّ إلى ما كنتَ حيًّا به مُغرى
فأنتَ كِتابٌ فيكَ كلُّ مُسطَّرٍ   ألا فامْحُ منكَ الكُلَّ إنْ شئتَ أنْ تَقرا
وما ثَمَّ إلاّ أنتَ فافقَهْ مَقالتي   فظاهِرُك الدُّنيا وباطِنُك الأُخْرَى

أصل يجب علمه:

بيان القول في الله تعالى أراد من العالم ما هم فاعلوه، وهم مع ذلك غير مجبورين فيما يختارونه، نقول:

إنّ الله تعالى أبدع العالم، وأعني به ما سوى الله تعالى، وذلك لحكمة من أجلها كان ما لم يكن، والعالم محلّ الأضداد من خير وشرّ، وحلو ومرّ، ومثل ذلك، والكلّ مراد الله تعالى إذ لا يتصوّر في العقل أن يكون ما لا يريد، وأن لا يكون ما يريد كونه، فإن قيل: قد يريد العبد أموراً فتكون بإرادة العبد، وإن لم يرد

الرَّبُ وقوعها، ولم يرد أيضاً أن لا وقوعها. قلنا: إرادته تعالى أن يكون العبد مريداً في بعض الأمور، وقد علم اللّهُ ما يريده العبد، فلم يمنع وقوع ذلك الأمر، وهو بعينه مراد لله، ولكن بإرادة زَيْد، فزَيدٌ غير مجبور عليه، وليس الأمر مفوّضاً إليه.

واعلم أنّ أعمال العباد عشرة؛ اثنان بدنيّة، وهي: الحركة والسّكون، وثمانية قلبيّة، وهي: العلم، والظَّنُّ، والشَّكُّ، والجهل، والفكر، والكلام، والنِّيَّة، والاعتقاد.

وإيضاح ذلك أنَّ الكسبَ عبارة عن اختيار القلب، لا عن مطلق الفعل، فإنّ الكافرين أحدهما قلبه مطمئنّ بالإيمان، لا يؤخذ لكونه غير مكتسب فعله بقلبه اختياراً بل اضطراراً. والحالفين أحدهما يؤاخذ لكونه مكتسباً قوله بقلبه اختياراً ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٥]. فالكسب عبارة عن الاختيار لأنّه مبدأ الفعل.

فإن قيل: إنّه تعالى جبر المختار على أنّهُ يختار هذا بعينه، فقد عاد الاختيار جبراً، وهو محال شرعاً ولغةً وعقلاً. بل نقول: إرادته أن يكون المختار مختاراً، وعلم ماذا يختار فلم يمنع وقوعه، فصار الواقع بعينه مراداً للرَّبِّ، لكونه علم ولم يمنع، وكسباً للعبد لكونه لم يعلم مراد الرَّبّ فاختار، فقد بان أنّه متى أراد العبد ما أراد الله وقوعه بفعل من العبد، كان العبد هاهنا مكتسباً، ومتى فعل العبد ما أراد الله وقوعه بفعل من العبد فوقع بغير إرادة من العبد لم يكن مكتسباً، بل العبد حينئذٍ إمّا مجزيٌّ بذلك الفعل الواقع منه لما تقدّم أيضاً منه، وإمّا مجبورٌ عليه لحكمة أرادها الله منه، والمجبور غير مؤاخَذ إلاّ أن يكون ذلك الجبر أيضاً جبراً، كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ [الأنعَام: ١١٠].. الآية، ويتحقّق ذلك كلّه من فهم قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [الإسرَاء: ١٨].. الآية.

نظمٌ في ذلك ليحفظ بسهولة: [السريع]

مِـن قَـبْـلُ شـاءَ الـلّـهُ مـا شَـاءَهُ ... فـي الـكَـوْنِ مِـنْ نَـفْـعٍ ومِـنْ ضُـرِّ
لِـحِـكْـمَـةٍ مِـنْ أجْـلِـهـا أبْـدَعَ الـ ... أضْـدادَ مِـنْ حُـلْـوٍ ومِـنْ مُـرِّ
فَـغَـيْـرُ مـا قَـدْ شـاءَهُ لَـمْ يَـكُـنْ ... ولَـوْ كـمِـثْـقَـالٍ مِـنَ الـذَّرِّ
فَـفِـعْـلُـهُ الأَمْـرَ إذا اخـتـارَهُ ... لِـكَـوْنِـهِ بـالأمْـرِ لا يَـدْري
كَـسْـبٌ لَـهُ لا بُـدَّ مِـنْ كَـوْنِـهِ ... كَـصُـورَةِ الـجَـبْـرِ بـلا جَـبْـرِ
فـالـكَـسْـبُ مـا يَـخـتـارُهُ قَـلْـبُـهُ ... مِـمّـا أرادَ الـلّـهُ أنْ يَـجْـرِي

في القولِ وفي الفِعْلِ في نَفْسِهِ أو غيرِهِ في السِّرِّ والجَهْرِ
وكلُّ ما يَصْدُرُ من فِعْلِهِ بلا اخْتيارٍ كانَ في الصَّدْرِ
لا إثْمَ فيهِ وهوَ جَبْرٌ لهُ كعابدِ الأصْنامِ بالقَهْرِ
ورُبَّما كانَ جَزاءً لِمَا قَدَّمَهُ في سالِفِ العُمْرِ
فهذهِ السُّنَّةُ قد أسْفَرَت مِن ظلمةِ البِدْعَةِ كالفَجْرِ

بيان:

مشابه في ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]. ثم تلاه بقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، الثاني مبيِّنٌ للأوّل، وذلك أنّه يجب أوّلاً أن تفهم الفرق بين قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ [النساء: ٧٩] فإنّه مُتَعَدٍّ، وبين قوله لو قال: ما أصبتَ فإنّه لازم. ثمّ اعلم أنَّ النّاس بين مؤمن وكافر، والواقع منهم أو عليهم خير أو شرّ، فالحسنة إذا صدرت عن المؤمن لا يجزيه الله عليها في الدُّنيا بل في الآخرة. والسَّيّئة، دون الكبائر، إذا صدرت من المؤمن لا يجزيه الله عليها في الآخرة، بل في الدّنيا لقوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، والكافر بضدّ ما ذكرناه. دليل الأوّل: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠]. ودليل الثاني: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [النحل: ٢٥].

ويجب أن تعلم أنّ جميع ما يُعَذَّبُ به الكافِرُ في الدُّنيا لا ينقص عنه من عذاب الآخرة شيء. وجميع ما ينعم به المؤمن في الدُّنيا لا ينقص عنه من نعيم الآخرة شيء.

ولا شكّ أن من علم هذا وحقّقه وصدّقه، تحقّق أنّه ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩]، لأنّ ذلك كلّه هبة في الدُّنيا لا جزاء ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، لأنّ ذلك جزاء، ولا فرق أن يكون ما أصابك بيد الله، أو بيد العباد، من خير أو شرّ، فهذا قسم ما أصابك، بقي قسم ما أصبت، وقد بيّنّاه من قبلُ نثراً ونظماً والله الموفّق.

زيادة فيما اشتبه من الألفاظ:

اعلم أنّ الأمر ينقسم إلى قسمين: أمر ندب يمكن مخالفته كقوله تعالى لإبليس: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] وقوله لآدم وحوّاء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة:

٣٥] وأمر حتم، كقوله: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: ١٨]، فلم يكن له أن يقول: لم أكن لأخرج، كما قال: ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ﴾ [الحجر: ٣٣]. فمن ظنَّ أنَّ كُلَّ أمر حتم غلط، وكذلك إرادة نَدْبٍ وتحسين، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾ [البَقَرة: ١٨٥]. وإرادة حتم وجبر، كقوله: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يُونس: ١٠٧]، فمتى لم تفهم من الإرادة الجبرَ في موضع الاشتباه فقد سلمت.

ومن قال: إنَّ الكُلَّ بقضاء الله وقدره فهو صحيح، لأنَّ الله ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ [الأنعَام: ١٢]، فلا يظلم مثقال ذرّة، وله أن يعفو ويجازي، فقضى بالفضل، والعدل، والحجّة الكبرى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرّعد: ١١].

وقال: شعر: [الكامل]

لَـكَ مِـنْ فُـؤادِي رُتْـبَـةٌ لا تُـدْرَكُ وَسِـواكَ مِـنِّـي ذَرَّةٌ لا يَـمْـلِـكُ
وَلَـقَـدْ كَـفَـفْـتُ خَـواطِـري عَـنْ أنَّـهـا تُـومِـي إلـيـكَ مَـخـافَـةَ لا تُـشْـرِكُ
وَصَرَفْتُ وَجْـهي عَنْ جَنابِكَ غَيْرَةً منّي إلَيْكَ فَلَسْتُ نَحْوَكَ أسْلُكُ
وَوَقَـفْـتُ عِـنْـدَ الأمْـرِ مُـعْـتَـرِفاً بـلا قَـصْـدِ اخْـتِـيـارِ لـي لِـئَـلاً أهْـلِـكُ
حَسْبِي بأنْ عَرَّضتَني لِرِضاكَ لي وَهَـدَيْـتَـنـي كَـرَمـاً فَـبَـانَ الـمَـسْـلَـكُ

غيرة، مناجاة:

شعر: [البسيط]

إنْ كـانَ يُـونُـسُ قَـد نـادَاكَ مُـعْـتَـرِفـاً بِـذَنْـبِـهِ عِـنْـدَمـا أدْخَـلْـتَـهُ الـظُّـلَـمـا
فَالجَهْلُ كاللَّيْلِ، والبَحْرُ المُحيطُ هُوَ الدُّ نيا، وجِسْمي هو الحُوتُ الَّذي التَقَما
فَكُلَّ حِينٍ أنا العَاصِي المُغاضِبُ في بَحْرِ الحُظوظِ غريقٌ أشْتَكي الألَما
فـهَـا أنـا يُـونـسُ والـعَـفْـوُ يُـؤنِـسُـنـي أدْعُـوك مُـبْـتَـهِـلاً فـامْـنُـنْ وَجُـدْ كَـرَمـا

حَلّ إشكال:

لمّا كان سُبحانه دائمَ البقاء، لا يعرض له شيءٌ من الفناء، صار من أجل هذا في جِبِلَّة الإنسان محبّة البقاء وشهوته، وكراهة الفناء، وبغضه، لأنَّ في جِبِلَّةِ المعلول توجد بعض صفات العلّة، دلالةً عليه، وإرشاداً إليه.

تفضيل التفضيل وتحصيل التنصيل: [الطويل]

يُخاطِبُني لي في مَواقِفِ قُرْبهِ وأشْهدُني غَيْري، وإيَّايَ أشْهَدُ
فقَال ولا غَيري يقولُ وإنّني مُناجٍ، مُناجَى، واجِدٌ، مُتَعَدِّدُ
وما أنَا غَيْري، غَيْرَ أنّيَ غَيْرُهُ وأقربُ بي منهُ وفي القُرْبِ أبْعُدُ
تَعالى وأدْناني إليَّ بِوَحْدَةٍ يراهُ بها إيَّاي، والغيرَ يفقُدُ
وما عَدِمَتْ ذاتي بلى وَجَدَتْ بهِ تَرقى بلا حَدٍّ هُناكَ وَتَخْلدُ
هُنا وَقَفَ السَّيّارُ من غير وَقْفةٍ فزادَ وزيدَ، قال: لا يتزيَّدُ
بغَيْرِ اتّحادٍ قُلْتُ: إنّي مُوَحِّدٌ وإنّي بما وَحَّدْتُ ذاتي مُوَحِّدُ
لأنّي بهِ غَيْري إذا لم أكُنْ بهِ بذلكَ أشْقى أو بذلكَ أسْعدُ
فَفِي وَحْدَتي بالذّاتِ ضِدّان جُمّعا ووَحْدَتُهُ بالذّات لا تتعدَّدُ
وتحقيق فصل الحكم بيني وبينَهُ قريبٌ إذا ما كُنتُ مَن لا يُقَيَّدُ
نَفيتُ مُرادي أنْ أردتُ مُرادَهُ فَما هاهُنا إلاّ المُرادُ المُجَرَّدُ
فعُدنا يقيناً فاعلينَ كواحِدٍ مُريدينَ مَوْصُوفينَ والفِعْلُ مُفْرَدُ
فإنْ قُلْتُ: فِعلُ اللّهِ فالقولُ صادقٌ وإنْ قلتُ: فعلي، فهو صِدْقٌ مُؤَيَّدُ
إرادَتُهُ تَجْري بأيْدي عِبَادِهِ فأفْعَالُهُمْ أفْعالُهُ وَهْوَ يَشْهَدُ
رَمى بيدِ الرَّامِي فَلَمْ يَرْمِ إذ رَمى سِوى اللّهِ والرَّامي هُناكَ مُحمَّدُ
ولا شِرْكَ بينَ الرَّامِيَينِ ومَن دَرى حَقيقةَ إيضاحِي بأحمدَ يَحْمَدُ
ألا إنَّ قُطْبَ الشّانِ أنَّ مُرادَهُ بِنَفْيِ إراداتِ العِباداتِ مُقَيَّدُ
فَمَهْما أرادوا لاعَنِ الأمْرِ أشْرَكوا وَمَهْما أرادُوهُ عَنِ الأمْرِ وَحَّدوا
ولَيسَ لِعَبْدٍ أنْ يُريدَ إرادَةً ولا نَفْيَها بل يأمُرُ العَبْدَ سَيِّدُ
فَمَنْ قامَ بالأمْرِ اسْتقامَ وهاهُنا هوَ المَطْلَبُ الأعْلى الأتَمُّ المُسَدَّدُ
لهذا إذا ما الأمْرُ فيهِ أقَامني فما أنا بَلْ غَيْري لهُ القَوْلُ واليَدُ
وحينَ أُقيمُ الأمْرُ أنّي عَبْدُهُ تعالى بما قد قالَهُ أتَعَبَّدُ
فَدأبي أقيمُ الأمْرَ حتَّى يُقيمَني طَريقٌ قَريبٌ للجميعِ مُمَهَّدُ
فَقُمْ تَحْيى بالأمْرِ الّذي إن أقمتَهُ أقَامَكَ حَيًّا حينَ تغنى وتُوحَدُ
فلا تَكُ مَقْتُولاً بسيفِ خَيالهِ ألا إنَّما سَيْفُ الخيالِ مُهَنَّدُ

قولنا: واحد سبحانه يلزم عنه أن لا يكون معه غيره، لئلا يلزم عنه التَّركيب، أو ما يغاير الوحدة أزلاً. والواحد: الأوّل له إطلاق الوجود والقدرة، والعالم بأسره مبدع لا من شيء، ولا يُقال: من عدم، لئلاّ يُظَنَّ أنّه شيء. بل العدم سابق لكلّ شيء من العالم، وهو الواحد بالقدرة المطلقة، وكلّ شيء مقدور للقدرة الأحديّة، والشَّيء في القدرة ليس ذاتاً، لئلاّ يكون من الواحد غيره قديماً، وتعود القدرة مقصورة على إبراز ما بها من الذَّوات للأعيان لا غير، وهذا حصرٌ مُنافٍ للقدرة المطلقة، والوحدة المحقّقة. بل قولنا: العالم كان في القدرة، والقدرة محيطة بالمقدور، وهو عبارة عن الإعلام بأن لا عجز هناك، بل قدرة مطلقة على إبداع الذَّوات، والتعيّنات، وسائر الممكنات، وإبداع ما شاء القادر من شيء متى شاء، كيف شاء لا من شيءٍ ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]. والعلم محيط بما في القدرة لم يزل في الأزل، وإذا انتفى أن يكون المقدور في القدرة ذاتاً، فقد انتفى أن يكون في العلم، فكما ليس القدرة غيرها، كذلك ليس في العلم إلاّ العلم بالشيء المقدور عليه، لا ذات المقدور، ولا معنى للعلم القديم إلاّ الإحاطة بالمعلوم المعدوم، علماً قبل وجوده موجوداً ذاتاً وعيناً، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٤].

وبهذا الاعتبار لزم أن يكون الله تعالى أقربَ من الشيء إلى نفس الشَّيء، لأنه تعالى متقدّم عليه، فهو أقرب منه إليه علماً، كما أنّه أسبق منه له وجوداً، وأقدر عليه منه إيجاداً، فلمّا كان الشَّيء معدوماً، كان الشَّيء جاهلاً بإيّاه علماً، وكان الله تعالى عالماً به إحاطة، فكما أنّ الله أقرب من الشَّيء إلى الشَّيء علماً، فكذلك هو أقرب إليه منه مطلقاً، أعني بكلّ وجه أزلاً وأبداً، إذ البَعديّة والقَبليّة من جهة البارىء واحدة في العلم والقدرة، ومن البيّن أنّ بالنور ظهر الوجود، ولكلّ شيء نوريّة باطنة، قابلها نور ظاهر، أظهر النّور، عيّن الشَّيء، ودلّ الشَّيء على نوريّته بعدت أم قربت.

ولمّا لزم عن نفس الأعيان نفس القدرة، كانت الأعيان مظاهر القدرة، ومحلّ تجلّياتها، وألسن دواعيها ومخاطباتها، والقدرُ سبحانه هو المتعالي عن كلّ شيء بذاته، والمُنزَّه عن الحلول بمصنوعاته، وعمّا يعقل من أسمائه وصفاته، لكنه تعرّف بكلّ جزء من مخلوقاته. ولمّا كان المعرّف أزلياً لا ينحصر ولا يتناهى، عاد التعرُّف سرمديًا لا ينقطع ولا يتناهى، فكُلُّ معلوم تصوّراً أو نطقاً، وكل مشهود معاينةً أو ذوقاً

بسائر تجلّياته، وجميع مخاطباته، داخل في باب تعرّفاته، وإليها الإشارة بأنواع العبارة، وهو الباطن بذاته، والظّاهر بآياته وسائر مبتدعاته، فلمّا كان أدنى من قولنا: جلّ وعلا من قولنا: جلَّ، قال له القائل واصفاً لمقامه في باب التّعرُّف، كاشفاً بمقاله من باب التّلَطُّف:

[المتقارب]

تَجَلَّى بِكُلٍّ فَلي ناظِرٌ ... يرى أنَّهُ ناظِري والنَّظر
فَحَلَّ وجَلَّ فأينَ الحُلولُ ... وأينَ السِّوى عِنْدَ أهْلِ النَّظَرْ
يخاطب بالكُلِّ حينَ الخِطابِ ... وينظُرُ بالكُلِّ حينَ النَّظرْ
فكُلٌّ لهُ ألْسُنٌ في الخِطاب ... وكلٌّ له أعْيُنٌ في النَّظَرْ
وَطَوْراً يناظِرني بالخِطابِ ... وطَوْراً يُخاطِبني بالنَّظرْ
فَعادَتْ برؤيتهِ رُؤيتي ... خِطاباً وعادَ خِطابي نَظرْ
وَعُدْتُ خَليفَتَهُ لي عَلي ... إذ عاد سَمْعِي بهِ والنَّظَرْ
لهذا نظرتُ بِنَفْسي الحِجابَ ... وقد كانَ يحجُبني بالنَّظَرْ
تعرّفَ بالكُلِّ في الحَالَتَيْن ... فَرْداً فَوَحَّدَني بالنَّظَرْ
أرَى فأراهُ يَراني بِما ... أراهُ بهِ وبنَفْسِ النَّظَرْ
فَلَسْتُ أرى ناظِراً غيرَهُ ... ولم أرَ غيري لِغَيْري نَظَرْ

دقيقة فرقان في حقيقة إنسان:

[البسيط]

عَبْدٌ ومَوْلى أرادا كَوْنَ كائنةٍ ... كُلٌّ أراد لِمَقْصودِ وأوطارِ
ولكنِ العَبْدُ لا يَدري إرادةَ مو ... لاهُ بدونِ وقوعِ الواقعِ الطّاري
فإنْ هُما اختلفا تَجري إرادةُ مَوْ ... لاهُ بكونِ المرادِ الكائنِ الجاري
وإن هُما اتّفقا كان المرادُ لكلْ ... لِ منهما وحدة مهن غَيْرِ إخْبَارِ
وينسبُ الفِعْلَ من أجلِ الإرادة للـ ... ـمولى وللعبدِ تَحقيقاً بإقرارِ
فالفعلُ مِن ذا ومِن ذا واحدٌ وإذا ... نسبتهُ كانَ منهُ فِعْلَ مختارِ
وليسَ للعَبْدِ إلاّ أنْ يريدَ وبال ... إرادةِ العبدُ ذو فِعْلٍ وآثارِ
يَجري المرادُ لعبدٍ قَدْ أرادَ إذا ... ما وافقَ القَدَرَ الجاري بمقدارِ

وقد يريدُ ولا يَجري المرادُ وقَدْ يَجري وإنْ لم يُرِدْ بلْ محض أقدارِ
إرادةُ العبدِ كَسْبٌ فهيَ ما كَسَبَتْ قُلوبُكُمْ وعليهِ يؤاخذُ البَاري
فبالإرادةِ عادَ العَبْدُ مُنقَلباً يَجري إلى جَنَّةٍ إمّا إلى نَارِ

إرادة عندية في حكمة فردية:

شعر: [الطويل]

بَدا بالَّذي أبدى فكُلٌّ يريكَهُ ويَحجِبُهُ كُلٌّ فَيَبدو وما يَبْدو
فليسَ يُرى بالعَيْنِ شيءٌ سِوى السِّوى وبالقَلبِ لا شيء سِواهُ لنَا يَبْدو
عِباراتُنا عنهُ ومنهُ إشارةٌ لها مَن بها يَبْدو لهُ منهُ ما يبدو
هو الظَّاهِرُ المَشْهورُ في كُلِّ مَشْهَدٍ ويَبْدو بما يَخْفَى ويَخْفَى بما يَبْدو
فيَبْدو ويَخْفَى بالسَّوادِ عَنِ السِّوى وحَاشاهُ أنْ يَخْفى وحاشاهُ أن يَبْدو

مطمئنة:

وقال: نظم أيضاً: [الطويل]

أشارَتْ بهِ فعلاً فبادرَ مُسْرِعاً وأوحَتْ لهُ قولاً فقالَ وأسْمَعا
وكانَ ما أبدَتْ إليه سِوَى القَنا فَقَطَّعَ ما في وُسْعِهِ فَتَقَطَّعا
تَجلَّتْ فَكَمْ مُوسى يَخُر وما رَأى فتابَ وكَمْ طَورٍ لديها تَصدَّعا
وكَمْ مُدَّعٍ قد ذاقَ خَمْرَ رُضابها ولو ذاقَ مُرَّ الصَّدِّ صَدَّ وما ادَّعى
نَعَمْ فازَ مَن أضْحَى بها لا بِغَيْرها يُرى واحداً في حَالَتيهِ لها مَعا
وقامَتْ بهِ في الكُلِّ وهو الَّذي بها يُشاهِدُها قَلْباً وَعَيْناً ومَسْمَعا

وقال غيره: نظم: [الخفيف]

أَنتَ حَيٌّ ذو فِكْرَةٍ فاذرِ من أنْـ ـتَ وهذي الأجْسامُ كالأشكالِ
فهيَ ظِلٌّ يُرى، وذو الظِّلِّ يخفى وهو ربُّ الخطابِ خَلْفَ الظِّلالِ
قائلٌ فاعِلٌ لما شاءَ بالفِكْـ ـرَةِ قَبْلَ الأقوالِ والأفعالِ
فَلَئِنْ كُنتَ لا تَرى الذَّنبَ إلاّ حينَ يَبْدو بالجِسْمِ فافْقَهْ مَقالي
أيَدِ الثَّوْبِ قَطْعُها أم يدِ السَّا رِقِ يُخْشَى في مَذْهَبِ العُقَّالِ
ومِثالُ المرْءِ يَظهرُ في المِرْ آةِ عندَ الإبْصارِ أم ذُو المِثالِ

ما عَلى الجِسْمِ عارٍ ما منهُ يَبْدو بَلْ عَلى مَنْ رَمى بِهِ في الوَبالِ
وإذا ما عَصَى الخيالُ كما نغصِي فلا ذَنْبَ عِنْدَنا للخَيالِ
وجميعُ الأمورِ يَقدمها الفِكْـ ـر فَثُبْ نَخْوَهُ بلا إهْمالِ
وابتَدِىء واجتَهِدْ وجاهِدْ وعاهِدْ وَاخْتَرِسْ وافْتَرِسْ بلا إمْهالِ
هوَ ينبوعُ كُلِّ قَوْلٍ وفِعلٍ فارْتَبِطْهُ في كلِّ آنٍ وحَالِ
تَنْجُ مِمّا تخافُ سِرًّا وجَهْراً وتَنَلْ ما تُرِيدُهُ في المآلِ

وقال:

كشف:

نظم أيضاً: [الخفيف]

لا تَكُنْ واقفاً مع الأجْسامِ فَجسومُ الأنامِ غَيْرُ الأنامِ
إنّما الجِسْمُ مَرْكزٌ لاحَ فيهِ كُلُّ شَكْلٍ وضِدُّه بالتّمامِ
فترى الجِسْمَ واحداً فيهِ يَبْدو كلُّ قِسْمٍ من سائرِ الأقْسَامِ
مَلِكاً مثلَ لمحةِ العَيْنِ وَشَيْطا ناً كالطَّيْرِ كالأنْعَامِ
[هو ظِلٌّ يبدو وذو الظِّلِّ يخفى بحجابِ الأوْهامِ فافقَهْ كلامي]
[وَهوَ حَيٌّ ذُو فِكْرَةٍ فاذرِ مَنْ أنْـ ـتَ، فأنْتَ المَخْلُوقُ للإكْرامِ]
وتَرى تارَةً سِواكَ كما أنْـ ـتَ، وهذا بابٌ مِنَ الأوهامِ
فإذا شِئْتَ كنتَ في كُلِّ آنٍ واحداً قائماً بأعْلَى مَقامِ
وتَرى ما تراهُ حقًّا عَلَى ما هُوَ في كُلِّ يَقْظَةٍ ومَنامِ
فَتَحَفَّظ وانْظُرْ بماذا تَرى الكُلْـ ـلَ وما الكُلُّ مِنْكَ فافقَهْ كَلامي

أُغلوطة:

كما أنّ الجسم المفروض كُلّيًا يجب أن يكون صحيحاً من سائر العاهات، ولا توجد الصِّحّة إلا منقسمة في الأجسام الجزئيّة، كذلك النَّفس الكلّيّة، تقال بطريق الفرض لذات تامّة، ولا يوجد لها إتمام في أحد الأنفس الجزئيّة، بل يوجد منقسماً مبثوثاً فيها، فسبحان من خلق الإنسان وأقامه لكماله متوسّطاً في الكون بين منائح ومصائب ومواهب ومكاسب.

إنسان:

نظم: [الكامل]

يَـغْـلـو ويَـسْـفـلُ كُـلَّ آنٍ دائـمـاً   في الـكـونِ بـيـنَ مَـنـائـحٍ ومَـصـائـبِ
يَـرْقَـى فَـيـلْـقَـى مـا بـهِ يَـرْقَـى وأن   يَـهـوى كـذا بـمـعـارفٍ ومَـعـاطـبِ
فـهُـنـا يـرى وهـنـا يَـراهُ بـوصـفـهِ   فَـيَـراهُ بـيـنَ مَـواهِـبٍ ومَـكـاسِـبِ

مناجاة:

نظم: [مجزوء الخفيف]

أنَـا مِـنّـي عَـلـى خَـطَـر   خَـفِـيَ الأمْـرُ ثُـمّ ظَـهَـرْ
فـاحـتـرسْ ويـكَ هـا أنـا الـ   ـقـائـمُ الـقـاهِـرُ الـذَّكَـرْ
لَـسْـتُ مـنّـي ولَـسْـتُ مِـنْـ   ـكَ إذا خـاطِـرٌ خَـطَـرْ.

تحقيق:

نظم أيضاً: [الكامل]

مـا فـي الـعَـوالـم ذَرَّةٌ أو خَـطْـرَةٌ   إلاّ وقَـدْ بـعـثـتْ إلـيـكَ تـعـمّـدا
لـيـبـيـنَ كَـسْـبُـكَ كُـلَّ آنٍ دائِـمـاً   وإلـيـكَ مـنـكَ يَـعـودُ عـائـدُ مـا بَـدا
فـالـكُـلُّ مَـخـلـوقٌ لأجـلـكَ مِـحـنـةً   وعـلـيـكَ يَـشْـهـدُ مـا تَـعـامِـلُـهُ غَـدا
ولَـئِـنْ تُـفِـقْ فـعـلـيـكَ مُـطَّـلِـعٌ يَـرى   ولـهُ تـعـامُـلُ بـالـعَـوالـم سَـرْمـدا

زيادة:

وقال أيضاً: [الخفيف]

عَـوِّدِ الـنّـفْـسَ فـي مـعـامـلـةِ الـحَـقْ   قِ مُـنـاهـا فـي سـائـر الأحْـوالِ
إنّـهُ فـي غَـدٍ تـعـامـل إيّـا   كَ بـمـا اعـتـدْتَـهُ عـلـى كُـلِّ حـالِ

الخير عادة:

شعر: [مجزوء الرمل]

كُـنْ إذا أحْـبَـبْـت عَـبْـداً   لـلّـذي يـهـوى مُـطِـيـعـا
لَـنْ تـنـالَ الـوَصْـلَ حـتّـى   تُـلْـزِمَ الـنّـفْـسَ الـخُـضـوعـا].

سؤال:

[السريع]

سَـألـتُ بـالـلّـهِ لـمـن قـد وَصَـل يُـخْـبِـرُنـي كـيْـفَ يـكـونُ الـعَـمَـلْ
فـي غَـفْـلَـةٍ عـمَّـتْ وفـي شَـهْـوةٍ تـمـكَّـنَـتْ مِـنّـا تـذلُّ الـبَـطَـلْ

جواب:

نظم:

[السريع]

لـو أنّ إنـسـانـاً أتـاهُ الأجَـلْ وعـايـنَ الـمَـوْتَ وقَـطْـعَ الأمـلْ
واستـيـقـنَ الـفُـرقـةَ من عَـالـمِ الـ ـكَـوْنِ وأنْ يَـلْـقـى الّـذي قَـدْ فَـعَـلْ
ولـم يـجـد زاداً ولـم يَـرْضَ مـا حَـصَّـلَـهُ بَـلْ سَـاءَهُ مـا حَـصَـلْ
فـاسـتـمـهـلَ الـلّـهَ لـيـسـتـدركَ الـ فـارِطَ فـي أقـوالِـهِ والـعَـمَـلْ
فـأُعْـطِـيَ الـمُـهْـلَـةَ لَـكِـنَّـهُ لـم يَـدْرِ مـا مِـقْـدارُ ذاكَ الـمَـهَـلْ
بـلْ إنَّـهُ قَـدْ عَـادَ مِـنْ خَـوْفِـهِ يُـرَاقِـبُ الـمَـوْتَ كـأنْ قَـدْ وَصَـلْ
فـهـلْ سِـوى الـمَـوْتِ لـهُ شَـاغِـلٌ بَـلْ شَـغَـلَـهُ الـموتُ عـمّـا شَـغَـلْ
كُـنْ أنـتَ هـذا أيـهـذا الّـذي اسْـتَـنْـصَـحَـنـي جاوَبْـتُ عَـمَّـا سَـأَلْ

وصية:

اعلم أنَّ جماع الخيرات، وأسَّ السَّعادات في التّقوى، والتَّقوى هي عبارة عن ترك المخالفة. فالمُتَّقي اتّقى مخالفة مولاه في أمر أو نَهي، ولهذا ضرب اللّهُ المثل بإبليس وآدم، فأمرَ إبليس، ونهى آدم فافهم هذا جيّداً، وابسُط في ذهنك هذا المختصر، وطالِعْهُ طول أيّام حياتك، واعلم أنّه لا تقوى على تقوى إلاّ بالصَّبر، فعليك به في كلّ آن، واسأل إعانتك بالصَّبر على ما تكرهه، وعمّا تهواه ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

نظم في ذلك:

[المتقارب]

سـبـيـلُ الـنـجـاةِ وأقـصـى الـمرامِ يـكـونُ بـصَـبْـرٍ عَـلـى الـمُـتْـعِـبِ
فـأيـنَ الـنـجـاةُ وأيـنَ الـمـرامُ وكـلٌ يـمـيـلُ إلـى الـطَّـيِّـبِ

نهي:

لاَ تَردُدْ إليه بالقدرة ما ردّه إليك بالكَسْب.

تعريف:

المُجرَّد من الأهواء يستخرج ودائع العقول بفكرة خالصة.

وصيّة مخلص ونصيحة متخلّص:

احضر الموت تَنْجُ من كلِّ همّ، وذرِ الافتكار في كلّ فانٍ، والزم الصَّمت ما استطعت، وخذ بالصِّدق، واصبر في سائر الأحيان وإذا عَزَّ أو تشابه أمرٌ فتمسَّكْ بحكم القرآن.

زيادة:

من سوس النَّفس أنّك كلّما قتلتها بسيف المجاهدة، أحياها الله فنازعَتْك، وطلبت منك الشّهوات لتعود فتقتلها ثانية، ثمّ تعود حَيَّةً، فيكتبُ لك ثواب دائم. وهذا هو الجهاد الأكبر، وهو معنى قوله عليه السَّلام: «**الدُّنيا مَزرَعَةُ الآخِرَةِ**»[1]، وبابُ جِهادِها الجوعُ، وغاية جِهادِها مُخالفةُ الهَوى.

تكملة:

شهوة النِّساء سببٌ لقيام الوجود، ولظهور الأفعال الإنسانيّة والإلهيّة، إذ لولا وجود الإنسان الّذي له تظهر الموجودات، لكان حكمُها حُكمَ العدم بالنِّسبة إلى الإنسان المعدوم، فلولا الإنسان الموجود لما ظهر الوجود، ولولا الشَّهوة لما ظهر الإنسان، فتارك الشَّهوة تركَ الوجود بأسره، وقوي على الوقفة في الوحدة بفكره، وأعظِمْ بها صفةً لمن تركها للّهِ بقوّة دائماً، ورقي بفكره في معارج التّجريد ملازماً.

وصيّة:

صانوك فلا تتبذّل، أغروك فلا تتذلّل، جدّوا بك ولا تكبّل، واستخدموك فلا تكِلّ، علّموك فلا تجهل، أمّنوك فلا تَخُنْ.

اكتحل بالفكر وحَرِّم على بالك أن يُلِمَّ به الهُوينى والفتور، واملك عِنان الفكر كما تملك زمام الذِّكر، وعليك بالعلم المستفاد من النَّظَر في ضمائر القلوب، ومواقع الخطرات، وما يتّصل بكلِّ خطرة وهاجسة، وما ينقدح في القلب من نورٍ، وصفاءٍ،

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير، فصل في ترك الدنيا ومخالفة النفس والهوى، حديث رقم (٢٦٧) [ج٢ ص١٣٩]، وهو من كلام سيدنا عيسى عليه السلام. وأورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١٣٢٠ [ج١ ص٤٩٥] وأورده غيرهما.

وظلمةٍ، ورَيْنٍ، ممّا لا يكاد ينشرح به صدرٌ إلاّ عن موهبةٍ إلهيّة. اللّهمّ إلاّ أن تنكت من الله في قلب عبد مؤمن نكتة تفزعه لما هو الأهمّ، فيفزع حينئذٍ إلى النَّظر فيما راعه حتّى يتدرّج بذلك إلى أن ينال شرحاً لصدره بعد الجهد الجهيد، والتَّعب الشَّديد.

وليس يكاد التعجّب ينقضي ممّن يزن بالعقل، وينسب إلى العلم، ثمّ لا يغنيه النَّظر في ضروب ما يعرض في قلبه من الخواطر التي هي فواتح أفعاله، وبواعثها، ثمّ في منازل فكره.

وربّما تشتدّ عنايته في تعرّف أحوال عينه التي هي موضع بصره الظّاهر، وقد علم أنّه يعرض لقلبه ما يعرض لعينه من عَوَرٍ، أو ضعفٍ، أو عمى. كذلك يعرض لقلبه ما يعرض لسمعه من الآفات، وكيف يرى تعلّم ما يصلح به ظاهره من العلوم الظّاهرة، وقلبه جاهل بحاله، ولو عمل على إصلاح سِرِّه، وإخلاص طويّته بمراقبة قلبه لدحض آثار وساوس تحدث فيه بتردّد واضطراب، إلى أن يقوى خاطر حقّ لا تردُّدَ فيه فسُمّي همّة، فإن بعث على فعل جزم سُمّي مشيئة. وللأدعية أثرٌ عظيم هاهنا، واللّهُ المُمِنُّ بكرمه.

الباب الثاني
في العامل

يا من هو الأقرب إليَّ منّي، يا قاطع كلّ قاطع، تكرّمت عليَّ بنفسي فبخلتُ بها عليك، وأنتَ الذي تملكها دوني، كأنّك من كرمك ذو حاجة إليَّ، وكأنّي من بُخلي ذو غَناء عنك، أنتَ الأكرم عاودَ الأبخلَ وناجاه في سِرِّه، أنا ابتليتُك ليؤنسه بما يوحشه متعرّفاً إليه بما يتوب به عليك.

قال: إن خفتُكَ فما عرفت، وإن خفتُ غيرَك فقد أشركت، لكنّي لا أخاف إلاّ إيّاي، ولا أُؤاخذ إلاّ بهواي، أسألك بعفوك سؤال الآمنين، وَلِذَنْبي سؤال الخائفين، أن تجعلني من الدّاعين المخلصين لك الذّين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢] وتمام الفاتحة.

كلام في النَّفس وفيما هو من جملة الحكمة في إيجادها:

النَّفس مخلوق شريف لشرف موجدها سبحانه، أوجدها على هيئة قابلة لفيضهِ، يمكنها عرفانه بعرفانها إيّاها، ولا مطلقاً لأنَّ لها أوّلاً كانت قبله عدماً بذاتها، ووجوداً في العلم، فهي باعتبارٍ ما معاني الصُور الظّاهرة، وصور المعاني الباطنة، وإنّما خلقت من عدم لتكون باقية من غير عدم، وإنّما تبقى بمعرفتها الواحد الأوّل سبحانه وتعالى، فلو أوجدها غير محجوبة بالجسم لحجَبَها رؤيتها إيّاها عن رؤيتها لمولاها، فتلطّف لها بحكمته، وحجبها لرحمته، وأراها إيّاها فيما عداها، فالتذّت بها وتألّمت في سواها، ثمّ أمرها بشرائعه ونهاها. فإذا تركت هاهنا لذّاتها، وتجرّدت عن إرادتها، فذلك أخصّ حالاتها، لأنها إنّما تركت ذاتها فلم تحتجب هناك بها عن رؤية ربها، وذلك هو نهاية المرام، وتمام الكلام، وإنَّ لها في عالم الجسم حالاتٍ لا تُحَدّ، ومقامات لا تُعَدّ، في دائرة أبداً ولا تُرَدّ، وكلّما دارت دورة منها ظهرت لذاتها بذاتها، واختفت عنها لعلوّ صفاتها، فربّما ظنّت إيّاها فاعلاً ومفعولاً، فليست من الكِبْرِ رداءً يرديها، ويحجبها بما فيها، فيطلع عليها بارئها فيهديها ويداويها، ثمّ يدبّرها ويريها، فإذا دارت ثانياً رأت ما رأته بادياً، لكنّه في رتبةٍ أعلى، ومَحلٌ أجلى وأحلى، فلمّا عَلت إذ دنت، قامت في مقامها، وادّعت فعاد سبحانه عليها برحمته عليها، وهداها بما لديها،

ثمّ سلّم زمامها إليها، فلم تزل على هذا المنوال دائرة بهذا الحال، وما ذلك إلاّ لأنّ من سوسها أنّها متى انفصلت عن لذّاتها، واتّصلت بذاتها، ونزعت إلى كمالها، وبزغت في جمالها، وتحلّت بصفاتها، وتجلّت على ذاتها، شاهدت إيّاها في كُلِّ ما سواها، فاستلذّت لذّة عجيبة لا تحصرها الألسن، ولا تُشَاهَد بالأعين، ومع هذا كلّه متى لم تكن معصومة بالنبأ العظيم، مهديّة إلى الصّراط المستقيم، فإنّها على ما هي عليها محجوبة عن معنى المعاني، قد اشتبه عليها الأوّل بالثاني، ثمّ إنّها رُبّما رَقَّت، فترقّت، فدارت بادية، وعادت غادية، فدخلت من غير الباب، ولبست غير تلك الثّياب، ثمّ نظرت فيما قطعت فوجدته الآن جرعةً من شرابها بل سِنَةً من سرابها، فتوارت في أحلامها، وقامت كما قامت قبل في مقامها، ولكنّها فتنت بأنّها تُشاهد في سائر الصّفات، ومجموع الحالات صور المثالات مجموعة ومفرقة، كليّة وجزئيّة، ظاهرة وباطنة تنطق بالأحديّة، وتشهد بالأزليّة الأوليّة، فلمّا شهدت شهاداتها في مرآة ذاتها، مالت حينئذٍ إليها، ووقفت ذاتها عليها، فتقدّمت أسماؤها، وتعالى علاؤها، وإنّها في سائر هذه المثالات المضروبة، والحالات المحبوبة، مطرودة بها، محجوبة بسببها، ولا تزال كذلك في سائر المسالك، وكلّما علت في الممالك هوت في المهالك، إلا إن دخلت من الباب، واعتصمت بالكتاب، فهنالك توالجتها المحن، وتخالجتها الفتن، فإن استقرّت في سائر الحالات مستمرّة على الثّبات، ربما عطفها عاطف عنها إليها، ثمّ أخذها منها، وردّها عليها، فرادها رائد من الشّوق، وزادها مما يكاد لا يدرك إلاّ بالذّوق، فتغيّرت تلك الأغيار، وطمست تلك الآثار، وحالت الحالات وانخلعت الصّفات والهيئات، وهاهنا أيضاً ربّما وقفت فانحرفت، أو انفصلت فاتّصلت، فإن استقرّت جاحدة، واستمرّت ساجدة، فهنالك لها الإيماء إلى ذلك، وقد كادت أن تقطع عنه المسالك. وعلى هذا التّقرير يجب أن يكون التّدبير، كلّما ظهرت عزّة ذلّت، وكلّما بهرت كثرةً قلّت، وهي أبداً تخلع ملابس الكبرياء، وتتقمّص بقمص الفقراء، وتتّبع مواطن الإسقاط، وتسلك سبيل الانحطاط، إلى أن تصل إلى الحدود، وتحلّ محلّ المولود، فتكون على فطرة الإسلام، فتلك رتبَتُها والسّلام.

وبعد هذا النّظام، والاعتصام بالإمام، قلبك أبداً إيّاها مردوداً عليها، وراجعاً إليها، لئلاّ تبرز اللطائف في الكثائف، والمعارف في المآلف، فتشتغل عن ورودها منها بما تورده عنها، فإنّ من المعاني ما لا يدرك بالمباني، ومن الباقي ما لا يمثل بالفاني.

نقل من الرَّوض الأُنُف:

الرُّوح هي النَّفس باعتبار، وهي العقل باعتبار. فالرُّوح مشتقّة من الرِّيح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحِجر: ٢٩]، ولم يقل: من نفسي، ومثل ذلك أنّ الماء الّذي يسري في أصل الشَّجرة إنّما هو ماء، فإذا مازج جسمها صار حامضاً أو حلواً مثلاً، وكذلك نفخ الروح في الجنين. فإذا كبر واكتسبَ سُمِّي بعينه نفساً. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدَّثر: ٣٨]. ويعبّر بالنَّفس عن جملة الإنسان. تقول: عندي ثلاث أنفس، ولا تقول: ثلاثة أرواح وقد جاء في الكتاب العزيز مما يدلّ على هذا كثير.

وكذلك الكلام في العقل، إذا اتّصفت به النَّفس صارت عقلاً يعلم ذلك بالفكر مع الوقوف على مقتضى الألفاظ لُغةً.

صِلَةٌ:

شعر: [المنسرح]

واشـتُـقَّ عَـقْـلٌ مـن الـعِـقـالِ كـذا ... كَ الـنَّـفْـسُ مـشـتـقَّـةٌ مِـن الـنَّـفَـسِ
فـالـوصـفُ كـالـذَّاتِ قـد أقـيـمَ كـذا الـ ... وصـفُ مـجـازٌ كـالـقَـبْـسِ والـقَـبَـسِ

بيان:

ليس العقل شيئاً سوى التّصوّر والتَّمثُّل، وإذا عدمته النَّفس عدمت ذاتها، فهي ميتة.

من رسائل إخوان الصّفاء:

سَريانُ قوى النَّفس في مفاصل الجسد واختلاف أعضائه. كسريان أجناس الملائكة، وقبائل الجنّ والإنس والشَّياطين في أطباق السَّموات والأرضين، من أعلى عِلِّيين إلى أسفل سافلين. فانظر إلى هذا الهيكل المبني بالحكمة، وتأمَّل هذا الكتاب المملوء من العلوم، وتفكّر في هذا الصِّراط المستقيم بين الجنَّة والنَّار، وتأمّل هذا الميزان الموضوع بالقِسط. فكما أنَّ حياة الأبدان بالتنفُّس، فكذلك حياة النّفوس بالتفكّر، وكما أنَّ النَّفس لا تسكن في النَّوم واليقظة، كذلك النَّفس في الفكر والجولان، وكما يتصرّف المتكلّم في النّفس الطَّبيعي، فيجعله إراديًا، كذلك يتصرّف في الفكر. ولمّا كانت الحركة في جملة العالم، لزم أن يكون محدثاً للّزوم والاختلاف والتَّغيّر، فسبحان الذي لا يتغيّر ولا يحول.

أمر:

لِيَكُنْ قَصْدُكَ من الأفعال غاياتها، فإنَّ الزَّرع لا يُطلَبُ للعُشب، بل لأجل الحَبِّ.

إيضاح شريعة بحكمة رفيعة:

إذا فارقت النَّفس هيكلها بقي لها ما اكتسبته من العلوم الرّبّانيّة والأعمال الدِّينيّة، والأخلاق الصّالحة الزَّكيّة، فلذّتها بها مستمرّة، كلمّا لاحظت ذاتها امتلأت سروراً، وإذا كانت بالعكس ورأت جوهرها مظلماً فاسداً، امتلأت تَرحاً وغمًّا، وكيف الفرار لها من ذاتها، فهذا خلود في جحيم، وعكسه خلود في نعيم، فاحذر أن تقتصر على هذا فقط، لكنّه مثال ومن ورائه قبول ما بعده، وكلّ قابل إنّما يقبل بحسبه، ومن جنسه ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [هُود: ٢٠]، و﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [سَبَإ: ٣٧]، و﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

وقال: نظم: [الطويل]

تَوَخَّ سَبيلَ الرُّشْدِ واجْنَحْ إلى التُّقى وخَلِّ عن الآثامِ واجتَنِبِ الفُحْشا
تَفَرَّدْ عَنِ القَوْمِ الَّذينَ اتَّخذتَهُمْ لأُنْسِكَ واستَبْدِل من الأنسِ الوَحْشا
فَلَسْتَ تَرى إلاّ مُسِرَّ عَداوَةٍ يُعِيرُكَ نُصْحاً وَهْوَ مُعْتَقِدٌ غِشًّا
أرى باطِنَ الدُّنيا سُمومَ أراقِمٍ وَإنْ ملأت للعَيْنِ ظاهرها نَقْشا

مثال:

يجب أن تفقه من خاصيّة الدُّنيا أنَّ القَلْبَ يميل إليها، فمتى قابلها عن قُرب جَذَبَتْهُ جَذْبَ المغناطيس للحديد، وشفاؤه في البُعد، وكلّما بَعُدَ أَمِنَ، ولا تنفعه شدّته وبأسُه، وكَسْرُه لسائر الأحجار عند القُرب، وذلك لعلّة عِشقيّة، وإنّما جعل القلب بهذه المنزلة ليميل بسهولة إلى الرُّوحانيّات عن الجسمانيّات، وكما أنّ الحديد إذا لازم المغناطيس زماناً صار فيه قوّته فجذب حديداً آخر، كذلك القلب إذا لازم الرُّوحانيات فعل في غيره كفعلها فيه. وكما أنّ ملازمة الصالح تؤثر الصَّلاح، فكذلك ملازمة الفاسد تؤثر الفَساد.

شريعة بحكمة:

النَّفس كالزُّجاجة الصَّافية، وقد ملكها اللّهُ اختياراً وإرادة تتمكّن بهما من المَيْل إلى الشَّيء وضدّه، وهو سبحانه يمدّها بما تريد لقوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسرَاء: ٢٠]. والثّوابُ والعقاب إنّما يقع على ذاتها من جهة صفاتها، والشَّيطان عبارة عن مجموع الصِّفات الرَّديئة، فمتى اتَّصفَ بها عادت كذَّابة، متكبّرة، جاهلة، غلاظة، لا تحفظ عهداً، ولا تكتم سرًّا، ميّالة أبداً إلى الشَّهوات، فإذا استمرّت غلبت عليها العوائد وأَلِفت الفاني، وقيّدها حُبُّ الرَّاحة والتَّواني، فصارت هذه الأخلاق لها كالطَّبع، فلم تتأثّر بوضع ولا شَرْع، وعلاجها في سائر الأمر بما تكره لتلبس الصَّبر.

نظم في ذلك: [البسيط]

لِـلـنَّـفْـسِ وجـهـان لا تـنـفـكُّ قـابـلـةً ... مـمّـا تـقـابـل مـن عـالٍ ومُـسـتـفِـلِ
وَجْـهٌ إلـى الـحَـقِّ فـيـهِ الـحَـقُّ ثـمّ لـهـا ... وَجْـهٌ إلى الـخَـلْـقِ لا ينفكُّ عن زلـلِ
كـنَـحـلـةٍ طَـرَفـاهـا فـي مُـقـابـلـةٍ ... فيها من اللَّسْع ما فيها من العَسَلِ
والـعَـقْـلُ يـشـهـدهـا الأولى فكُنْ أبداً ... مـقـابـلاً قـابـلاً فـي الـقَـوْلِ والـعَـمَـلِ

من رسائل إخوان الصفا:

النَّفس الكلّيّة تُسمى عند الحكماء طبيعة، وعند المُشرّعين هي ملك من ملائكة الله الذين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التّحريم: ٦]، وكما ينبثُّ النور والحرارة من الشَّمس التي هي بوسط الأفلاك في جميع العالم، ويمدّ كلاً بحسبه، وبه يحصل التّكوين وغير ذلك، كذلك في الإنسان من الحرارة الغريزيّة المنبثّة من قلبه، المتّصلة بجزئيّات بدنه، ومن زُحل في العالم الأكبر، كما من الطّحال، ومن المرّيخ كما من المرارة [الصَّفراء] ومنه مالك، ومن المشتري كما من الكبد ومنه رضوان، وكما من الزّهرة كما ينبثّ من جرم المعدة شهوة الملاذ ومنها روحانيات الحوت، ومن عطارد، كما من الدّماغ، ومن القمر كما من الرِّئة، ويعاون بعضها بعضاً في الأمر الواحد، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

نظم: [الكامل]

فـالأرْضُ كـالـبَـيْـتِ الـعَـتيق وحَـوْلَـهُ الـ ... أفْـلاكُ والأمـلاكِ كـالـطُّـوَّافِ
وَبِـهِ الـخَـلـيـفَـةُ ظـاهِـراً وفـؤادُهُ ... بَـيْـتٌ بِـهِ ذاك الـخَـلـيـفَـةُ خـافِ

حَـيٌّ عَـلـيـم قـادرٌ مُـتَـكَـلِّـمٌ يـخـتـارُ يُـبْـصِـرُ سـامـعٌ بـتَـنَـافِ
ولأجْـلِـهِ كـانَ الـجـمـيـعُ لأنَّـهُ هُـوَ صَـاحِـبُ الأسْـمـاءِ والأوْصَـافِ
فـاعْـرِفْـهُ مَـخْـلـوقـاً تـعـالـى رَبُّـهُ عَـنْـهُ وهـذا فـي الـعَـمـارَةِ كـافِ

موعظة:

العالم الغير عامل كالحاسب لغير حاصب، والتَّاجر إنّما يفتقر إلى الحساب من أجل أنّ له المال، وعدم الأعمال أشدّ ضرراً من عدم المال.

تجربة وعلم:

إذا طالبتَهُ لاطَفَكَ بكُلِّ شيءٍ، فإذا عَرَفْتَهُ قطع عنكَ كُلَّ شيء، فإذا لم تَرَ في كلِّ شيء غيره، أعطاك كُلَّ شيء.

تعريف:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

النَّفس ملك بالقُوّة، يمكن أن يكون ملكاً بالفعل، وشيطاناً بالقُوَّة يمكن أن يكون شيطاناً بالفعل، وأمرُها إليك، وزمامها بيديك، فإن أطعتها عَصَتْك، وإن عَصَيْتَها أطاعتكَ.

بيان وافٍ:

سائر المحسوسات في العالم الأكبر أمثلة لما في العالم الأصغر، وهو صاحب الأسماء المسخّر له ما في الأرض والسَّماء، الخادم لإيّاه، المخدوم فيما عداه. فكثيفه ظهر، ولطيفُهُ استتر، وهو المبسوط في العالم الأكبر ليعرفه بما جلَّ، والمجموع في العالم الأصغر ليثبته بما قَلّ. ولمّا بدا في المظاهر اختفى في الظّاهر، فيظهر في الخارج، ويرى ما وجب ظهوره من الباطن ممّا لا يرى، كما تبيّن للإنسان من إنسان أو حيوان أو معدن أو نبات أو هيئة من الهيئات في سائر الأوقات ما يحبّه ويكرهه، أو يعرفه أو ينكره، إعلاماً له في الظّاهر بحالة الكامن في الباطن. وكما أنّه يدرك في النَّوم بحواسّه الباطنة صوراً في خياله، فكذلك يُدرك بحواسهِ الظَّاهرة ما ينطق بحاله، ونتيجة المدركين هدًى في المثالين ليظهر لأُولي الألباب فضيلة الاكتساب، والأتقى يرقى، وسيجنّبها الأشقى، فذو الفرقان بذاته ناظر في مرآته، مهديّ إلى صفاته. في سائر أوقاته، فإن نظر إلى سواه، لم يرَ إلاّ إيّاه، مثاله حاذاه، مقاله ناداه، فعاله باداه،

خياله عاداه، فليترفقْ بنفسه في عقابه، وليتلطَّفْ بإيّاه في سؤالهِ وجوابه، إذ عائد كُلّ ذلك عليه، والأمر فيه إليه، والولد والآل، والحال والمال، فتنة في الخيال، والقال والفعال، والهجر والوصال، والحرام والحلال، والأضداد والأشكال، وبقيّة الأحوال ضربت له بها الأمثال، والحقائق على حالاتها، والدَّقائق على هيئاتها، وما خرج عن كيانه، أو تنحّى من مكانه، فذلك بحسب رأيه لا لحادث حدث فيه، بل كل حقيقة قائمة بذاتها، ثابتة في هيئاتها وإنّما يظهر لتغيّر مرآتها تغيّرٌ في صفاتها، وصاحب الدَّارين هو المسمّى باثنين أُنثٌ أنثى. فسائر المعاني للواحد الثّاني، ولولا وجوب الأوّل لما انتهى السَّبر، ولولا تغيّر الثّاني لما علم أنّه غير.

زيادة:

كل مشاهد في عالم الكون تمثيلات معانٍ في عالم العقل، والحقيقة غير زائلة، ولا بائدة بزوال المثل، وإنّما يصوّر العقل ذاته في الهَيُولى، ثمّ ينظر بذاته إلى معاني ذاته، فيلتذّ لا بشيءٍ خارجٌ عنه لذّةٌ عجيبة سرمديّة، ونعني بالعقل هاهنا النفس العاقلة، وهذا هو التّرجمان الأعظم.

تتمّة:

كما أنَّ المرآة التي رسخ فيها الصَّدأ لا يؤثّر فيها الصّقال، إلا أن تعاد إلى النّار، كذلك النّفس المغمورة في حبّ الدُّنيا، لا يؤثّر فيها المواعظ، إلا أن تُرَدَّ إلى المصائب.

نظر:

الإنسان ناطق لا يزال فمهما لم يُشْغَل فينطق بالذِّكر نطق بالفكر، ومتى لم يقيّده العقل جرى في ميدان النِّفاق والجهل.

مضارع:

الإنسانُ مُسَخَّرٌ، ومُسَخِّرٌ له، فمتى لم يستعمل الملائكة استعملته الشَّياطين.

صحّة:

إذا قويت النَّفس على قهر هواها شغلت بمولاها، وهذا مع علاقاتها البدنيّة، وضرورياتها الدينيّة، فهنالك هي أولى بذلك لتمام التجريد، وانكشاف سرّ التوحيد.

حالة للنّفس:

النّفس ترى ظاهراً صور معانيها، وباطناً معاني صورها، فالوجود بما فيه، هو دخول صورها في متصوّرها.

هداية وكشف:

لمّا كان البارىء تعالى غنيًا عن أفعال العباد، وقد خلقهم فاعلين مختارين بقدرة وهبهم إيّاها سبحانه، ولزم أن يكون عائد أفعالهم عليهم، وإذا كان كذلك لزم أن يُعرِّفهم ما يضرّهم منها وما ينفعهم، ويدلّهم على استدراك ما فرط، وجلب ما يزيدهم من الخيرات، فعرّفهم سبحانه بالأوامر والنّواهي، ما يضرّ وما ينفع، وجعل ذلك بصورة الأمر منه، حتّى كأنَّ العائد يعود عليه، ثمَّ جعل الثّواب والعقاب تأكيداً، ثمَّ علّمهم استدراك ما فرط منهم بالتّوبة، وجلب ما يزيد بالدُّعاء، وربَطَ الأمر بالصَّبر، وجعل هذا القدر رضاه منهم ترغيباً لهم فيه، فمن زعم أنّه يطلب الله، فغايته أن يطلب رضاه، ومن طلب رضاه فهو الذي عمل على مصلحته في دنياه وأخراه، فما ظهر منها حقّقه بالعقل في سائر الأبواب، وما خفي قلّده بالنّقل الصحيح عن الكتاب، ومتى تبرّأ العبد من هواه، وعمل على نفعه مقتدياً بكتاب الله، فقد بلغ رضاه، إذ لا يعود النّفع على أحد سواه، ومن علم أنّ إيجاد الوجود لا عن افتقار ولا عبث، فقد تحقّق ما قلناه.

واعلم أنَّ الله تعالى قد خلق الأكوان، ووهبها للإنسان، وهداه ومكّنه فيما لديه، وجعل اختياره وأعماله عائدُها عليه، وجعل الأمر في ذلك إليه.

نظم في ذلك: [البسيط]

يا نائماً عَن هَواهُ قطّ لَمْ يَنَم قُمْ واقْرَعِ البَابَ بينَ العَفْوِ والكَرَمِ
ما كانَ كانَ فلا تَفْكُرْ بهِ أبداً إذا ندمتَ أضَعْتَ العُمْرَ في النَّدَمِ

نبأ:

جميع الملاذ والمحبوبات، بل سائر المعقولات والمحسوسات موجودة في النّفس مضافاً إلى ما فيها أيضاً، وإنما رأت في الخارج وأحبَّت ما هو فيها، وإذا فارقته بالموت، إنّما فارقت علاقتها علاقته الصّورية، ثمّ وجدت ما شاءت من أهلٍ وولد، وغير ذلك أقرب إليها، وأيّ قرب، لأنّه لا مكان هناك فيعتبر فيه القرب بالنّسبة إلى بعد، ولهذا إنّما وسعت الأفهام هاهنا من ذلك ما جاءت به العبارة العُليا

بقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ [ق: ٣٥]، ثمّ قال ما يدقّ فهمه عن إدراكِ البَصائر، فيحتاج إلى الإيمان بالغيب، وهو قوله سبحانه: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، ولا أعظم من هذا، وفي قُبالة هؤلاء ما أنبأ فيه بقوله: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ﴾ [الكهف: ٤٩]، لأنَّ جميع ذلك في النَّفس مركز مبثوث، مشاهد لها فيها حيث ما تُشاهده في الخارج من جميع الجسمانيّات، فإذا زالت الحُجب الجسمانيّة رأت ذلك حاضراً، ولهذا مثال مشهود من المنام الصَّادق، وهاهنا للمتفكّرين في معراجهم يحسبهم فيه.

موعظة لهم وذكرى:

ومن ترقّى من هاهنا، ذائقاً بالعمل، مجاهداً لفكرته عن التَّقلقل، مستقيماً، رافضاً للحواسّ، ملازماً لحالة عشقيّة، ملاحظاً للحمد، رقي من محلّ الإنس إلى مقام التَّوحيد، ومن هنالك يسير إلى الوصول حتّى يصل إلى اليسير فافهم.

ولـمّا كانت النَّفس لا تنال من القرب إلاّ بحسب تجريدها، ولا تجريد إلاّ باجتهاد، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العَنكبوت: ٦٩]، ولـمّا كان زبدة الجهاد المطلق هو الصَّبر، كان حكم الصَّابر كحكم من حبس نفسه عن السَّير في سائر السُّبُل، إلا واحداً، ومن شأنها سير أبداً فسرت فيه ضرورة.

تقريب:

اخطر ببالك أنَّك إذا أدمت النَّظر في بركة ماء فيه أنواع الحيوان، وأشكال على الحيطان، ثمّ إنَّك إذا حقّقتَ النَّظر، وتوغّلت في التأمُّل والفكر، فوجدتَ أنَّ سائر ما شاهدته في ماء البركة من جميع معانيها، إنّما هو خيال لما في الدَّار التي أنت جالسٌ فيها، لكنَّك شغلت برؤية ما لديك عن الالتفات إلى ما هو حواليك، فإذا رفضت الفاني، وقلبت النَّظر، شاهدت الباقي كلمحِ البصر، فَخَلِّ اختلالات الخيال، وخذ على هذا المثال، قبل وصل القطع، وقطع الوِصال.

ترهيب وترغيب:

جماع الشُّرور والأضداد، في عالم الكون والفساد، لأنَّه مأوى كلّ نزر رذيل، ومتغيّر مستحيل، وصورة الإنسان هي نسخة الأوان في محل التغيّرات، ومقرّ الآفات والاختلافات. ولهذا أصل القبائح والشُّرور ينشأ عن الجسمانيّات، وكلّما قويت علاقة النَّفس بهما، كان بعدها عن الرُّوحانيات بحسبها، وتستمرّ العقوبة عليها متواترة، في الدُّنيا والآخرة، إلى أن تتحقّق الحقائق، وتنقطع العلائق. فإذا انتقلت من عالم

الأجساد، فارقت العوائق والأضداد، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. فمحبوب الأشباح مُتَغيّر مع الأحيان، ومحبوب الأرواح ثابت في كُلِّ آن، وحيث الفناء يكون المحبوب بحسبه، وحيث البقاء يكون المحبوب بحسب مُحبّه، وقد يُضرب المثال بما تصوّره الخيال من استحضار صور لطيفة عجيبةٍ في الجمال، وإذا وجدت ظاهرة رأيتها كثيفة متغيّرة المواد والأشكال، وظلمة الأجساد الموجبة للاختلال، فمن شهد المثال زهد في الأهل والمال، ولذّات الخيال. ومن عمل للمآل بلغ الآمال، ووجد ما فقد باقياً على أيسر حال، وأنعم بال، وكما هاهنا محلّ المتاعب، وعدم اللّذات الفانيات، فهنالك مقرّ الرَّاحات، ودوام اللّذات الباقيات.

علاج:

كما أنَّ النَّفس في الظَّاهر إذا مُنِعَت محبوبَها ضاقت وغضبت، كذلك في الباطن قد يحتجبُ عنها أمرٌ حقّ، فيجد الإنسان انحصاراً وضيقاً لا يعلم له سبباً، فليبعد عن الفاني تُكشَفْ له المعاني.

كشف ردى وسبيل هُدى:

لا معنى للظُّلم إلاّ أن تمنع الغير شيئاً يستحقّه من الخير، فالّذي ظلم نفسه هو الذي منعها حظّها من الصَّلاح بميله إلى الفساد، وإنّما خُلِقَ ميّالاً إلى الطَّرفين ليميل عن الشُّرور والشَّهوات إلى العقليّات، فمن حيث مال إلى الأدنى فقد ظلم نفسه بمنعها عن حظّها من الأسنى، فهاهنا هو إنسان ظالم، وهنا هو إنسان عادل، وبهذا يعلم معنى قولهم: أوّل مراحلك أن ترحل عنك إليك، ثمّ ترحل إلى ما كنت به إليك عنك، ثمّ تصير إلى من به رحيلك، وهو الذي كان معك في الطَّريق، ولاطفك في كلّ حال، وأخبرك عنك ثمّ نبّأك بما لم يكن سرّه وعلانيّته إليك، فلمّا صفاك واستصفاك صافاك، ولمّا صافاك قطع كلّ ما بينك وبين غيرك، ثمّ قطع كلّ ما بينك وبينه، ثمّ جمع كلّ ما قطعك به، فجعله وصلة لك.

زُهد:

الشَّوق إلى الأشباح شوقٌ إلى الفاني، والعقل مُنَزَّهٌ عن ذلك لإيثاره الباقي وما لا بقاء له، فلا فرق بين كثيره وقليله، ومن خداع النّفس أنها توهم الشَّوق إلى الأرواح بواسطة الأشباح، فيقال لها: إنَّ من الجائز أن يكون المشتاق إليه قد مات، أو انقلب عدوًّا، أو هو حين الاجتماع به شيطان، أو كافر لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، فكيف يجوز الشَّوق إلى مَن لم يتحقّق من

حاله سوى صورة الجسم مع جواز عدمه، فلم يبقَ سوى ظنّ، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النّجم: ٢٨]، وما لا بدّ من مفارقته فلا فائدة في مواصلته ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التّغابن: ١٥]، وإذا كان كلّ ما يفعله العبد مع غيره، أو يفعله غيره معه من خير أو شرّ، ليس له أثرٌ في الآخرة إلاّ في فاعله، ولا يناله خير إلاّ من عمله، لقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فُصّلت: ٤٦]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النّجم: ٣٩]. فما الحزم أن تعمل لسواك، ولا أن تشتاق إلاّ إلى إيّاك.

وصية:

اجعل جسدك بيتك، وقلبك خلوة في البيت، واجتهد أن لا تبرح في خلوتك منتظراً لمحبوبك، فلعلّه أن يزورك فيجدك حاضراً، والمكان خالياً.

تعليم:

اعلم أن قيمة العمر ما يُكتَسب فيه، فمَن كسب الباقي فلا يقوم كسبه، ومَن كسب الفاني فلا قيمة لكسبه، ولا كسبَ أفضل من علم، فكثير العمر مع الجهل قليل فانٍ، وقليله مع العلم كثير باقٍ، وتطويل قصيره إنّما هو بالتّجريد، وتقصير طويله صرفه فيما لا يفيد، ومن استفاد علماً، ولو في لحظة أو في نوم أو يقظة ندم على ما من عمره فات، واحترز على باقيه من الآفات، فطالت بالعلم أوقاته، وطابت بالطّاعة حياته، والمعرضون عن الطّاعة ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الرّوم: ٥٥].

شيطان:

الشَّيطان اسم مشتقّ من شاط يشوط شوطاً في الأرض، وهو سرعة السَّير، وهو في الإنسان كناية عن الخاطر الّذي لا يستقرّ به الفؤاد، بل يشوط دائماً في الأرض، ويهيم في كلّ واد.

والخاطر خاطران؛ علوي: وهو الملكوتي، وينقسم إلى أقسام هُنّ بمنزلة الملائكة، وسُفليّ: وهو الأرضيّ الذي أُهبط من الجنّة إلى الأرض، ومعنى الجنّة مأخوذ من الاستتار لِلُطفها وروحنتها، ومعنى الأرض الجسمانيّات، وما يتعلّق بها، فما كان من الخواطر علويًا فهو روحانيّ ملكوتيّ، وهو من الجنّة، وما كان سفليًا فهو جسمانيّ شيطاني، وهو من الجِنَّة.

يا عاقل! هو أبى أن يسجد لك سجدةً واحدة وقد أُمِرَ، فكيف تسجد له دائماً وقد نهيت.

حقّ:

لو قدّرنا أنّ إنساناً تحقّق أنّ متاعبه في النّوم تنقلب راحاتٍ في اليقظة، وبالضدّ، ثمّ رأى مناماً يتضمّن المتاعب، ويحتوي على المعاطب، مع علمه أنّه نائم، لما كان يبالي بما يراه من المصائب، ولا يأسى على ما فاته من الأطايب، لتيقّنه أنّ ذلك من باب الخيال، وتحقّقه بما يؤول إليه الحال، ومن أبلغ الكلام في هذا المقام، قوله عليه السّلام: «**النّاسُ نِيامٌ**»(١).

لمحة الجنان من ملحة الجنان:

سرت نسمة فسرت كرباً، وسرت قلباً، وجلت همًّا، وجلت مشاهدة وعلماً.

إنّ ذوات اللّذائذ والطّيّبات من المنظورات والمسموعات، وبقيّة المحسوسات، إذا تجرّدت منها الذّات، وعلت بملكة التّجريد عنها عليها، رُدّت لطائفه إليها، فإن نظرتَ إلى ما فوقها من العقليّات أمدَّت بالهبات العليّات، وإن نظرت إلى ما دونها من الحسّيّات واللّذائذ الجسمانيّات، شهدت في ذاتها سائر مطلوباتها، واستمرّت في الحالتين خالدة في جنّتين، وقد تضرب الأمثال فيما يتصوّره الخيال، وإن جلّ عن المقال، كالنّاظر إلى خضرة البستان، ونضارة الأغصان، وجريان الغدران، مع سماع ظريف الألحان، على لطيف العيدان، من طرائف الحسان في محلّ فيه الأماني والأمان، فهذا يجد في ذاته من إدراك لذّاته ما لا يخطّه البنان، ولا ينطق به اللّسان، حتّى لو أغلقَ عينيه، وحجب عن السّماع أذنيه، لبقيت لذّته تلك مستمرّة عليه، وربّما تلطّفت في مرآة الفكر، فزادت على لذّة النّظر، فهذا اللّذيذ الموجود مع الإعراض عن المشهود، منه جنّتان ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ [الرّحمٰن: ٤٨]، موجودتان في كلّ آن، خباء في ذات الإنسان، فلو غاب لحضر، ولو نَسي لَذكر، وشهد في ذاته كلمح البصر سائر مطلوباته ممّا بطن وظهر.

إلحاق:

الطّاهرات المقدّسات، والرّوحانيات الواصلات لم تزل ذاكرات، شاهدات حاضرات، وإنّما شغلك عنها الحسّ فظننتها غائبة، ولو قطعت شواغل الأجسام،

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير، من كلام سهل بن عبد الله التستري برقم (٥١٥) [ج٢ ص٢٠٧]، ولفظه: «**الناس نيام فإذا انتبهوا ندموا وإذا ندموا لم تنفعهم ندامتهم**» ورواه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء [ج٧ ص٥٢] من كلام سفيان الثوري.

كحالتك في المنام، كشف لك سرّ اللّطائف الرُّوحانية في الصّور الجسمانيّة، وخوطبت بأسرار الذّوات، وأسجد لك ما في الأرض والسّماوات.

نفس: [الطويل]

هيَ النَّفسُ تَنْمُو دائِماً ونُمُوُّها ... دَليلُ حُدُوثِ العَالَمِ المتجدِّدِ
زيادتُها عَن أمْسِ دَلَّتْ حَقيقةً ... عَلى أنَّها في اليومِ أنقَصُ من غَدِ
فَنُقصانُها بالذَّاتِ أصبح شاهداً ... لِرَبٍّ يَراها بالكَمالِ المُؤبَّدِ

إعانة وعلاج:

يُستعانُ على النَّفسِ بثلاث؛ الأوّل: بمنعها مشتهياتها، فإنَّ الحمار إذا مُنعَ بعض قضمهِ انقادَ. الثّاني: تحمّل أثقال العبادة فإنّ الحمار الّذي يُذلِّلُ حِرانه إنّما يذلّ بثقل ما يُحمل عليه. والثالث: التَّضرُّع إلى الله من شَرِّها دائماً.

ويُستعان على الشَّيطان بثلاث: تَعرُّفُ مكائده، وتركُ الاعتناء بوسوسته، وإدْمانُ ذكر الله.

أصل:

زَيْدٌ لا يمكن أن يصوم، أي مع قدرته على الصَّوم. زَيدٌ لا يمكنه أن يصوم أي لعجزه، فافهم الفرق بين الإمكان والتّمكين. فنقول: أبو لهب لا يمكن أن يؤمن، ويمكنه أن يؤمن، فأمره الله تعالى، فلزمته الحجّة من جهة التّمكين، ولا يكون مجبوراً لأجل انتفاء الإمكان، لأنَّ انتفاءَه إنّما وقع باختياره لنفسه مع قدرته، فعلمه الله سبحانه من قبل.

تهذيب:

إنّما يؤجَر الأجير على قلع ما ينبت من الشَّوك في روضة المالك، وكلّما تكرّر عَوْدُ الشَّوك، عادت الأجرة للأجير. ونفسك روضة أنت أجيرها، فهل يحزن بما يجب أن يفرح به إلاّ كسلان يُحرم الأجرة.

معراج:

القُرآن فهرست الكلّ، فاستعرض من العوالم مهما أمكن بقرآن الفجر، مُترقّباً ما يوحي إلى فكرك من المعاني بالمباني، فإذا تألّق برق فكرك في معراج فاحفظ أوّل نهارك بالفكر فيما بدأت به، يحفظ لك النّهار كلّه.

كشف:

كما أنّ مادّة الحيوان الاسطقسات، كذا العالم السُّفلي مادّته من العالم العلويّ، ومتى تشبّه المفعول بالفاعل صار واسطة بذاته في تدبير العالم، وإيجاد ما يجب وجوده فيه، وذلك بعد المفارقة، وله قبلها بحسب التَّشبّه بالصِّفات إيجادٌ تأليفيّ في الجسمانيّات، وإبداع في بعض الرُّوحانيات.

فالإنسان عالم سفليّ، وسائر الأشياء قُشوره، والجسم أرض، والنّفس نواة في أرض الجسم، يلحقها من نور الحقّ كما يلحق النَّواة في الأرض من حرارة الشَّمس، فمتى برزت النواة من الأرض صارت نخلة، ورأت العالم وعجائبه، وطلعت الشّمس عليها كفاحاً.

ولمّا كان النَّوم بعض الموت وقد رأينا النّفس تدرك فيه من الغيب ما لا تدركه في اليقظة، علمنا أنّها في الموت أشدّ إدراكاً، فلا مطلوب أبلغ من الموت، وكُلُّ طريقٍ، ورياضةٍ، وتجريدٍ لا يؤدّي إليه، فليس له ثمرة.

شعر: [السريع]

سَعَتْ تَؤُمُّ المَوْتَ أقْدامُ ... قَصْداً بِهِ جِدٌّ وإقْدامُ

الموتُ بابُ اللّهِ لو لم يكُنْ ... ما فازَ بالمَطْلوبِ أقْوامُ

فراقِبِ الموتَ تَرَ واحداً ... وكلُّ ما في الكونِ أصنامُ

فالكونُ للإنْسانِ بدءٌ إلى ... غايَتِهِ والمَوْتُ إتْمامُ

ومثله: [الطويل]

إذا رُمْتَ أنْ تَحْيَا فَمُتْ عن علائقِ ... منَ الحِسِّ خَمسٍ ثمّ عَنْ مُدْرِكاتها

وقابِلْ بعينِ النَّفسِ مرآةَ عَقْلِها ... فتلكَ حَياةُ النَّفسِ بعدَ مَماتِها

كمال:

الكامل من كان طريقاً لجريان النُّعوت الإلهيّة، وهو يعلم الفرقان بينها وبين العلم بها.

مضارع:

النفس:

للنّفس مواطن؛ فهي في كلّ موطن غيرها في غيره. ومع ذلك هي هي، ومواطنها لا تُحصى، وحالاتها وأسماؤها لا تُستقصى، فهذا حالها مع موجود موجودات سواها، وواجب سوّاها. فإذا استقامت في موطن صدق، وقامت على قدم عشق، في باطل وفي حقّ، تجلّت لها ذاتها، وقد تجلّت بصفاتها، فخاطبها معناها كأنّه سوًاها، فظهرت في صورة جسمانيّة كثيفة، أو معانٍ روحانيّة لطيفة، فتراها في منامها، وتخاطبها في أحلامها بأنواع الغرائب، وتخبرها عن الغائب، وإذا قويت عوائدها، وأثمرت فوائدها، سمعت تلك المخاطبات يقظة من الصّور الإنسانيّة وغيرها جهرةً، فتارةً يناطقها غيرها من النّاس بما تفهم، والمناطق لها لا يعلم، كما أخبر المستيقظ العالم، إذا سأل فأجابه النّائم. وتارةً يخاطبها المستيقظ لأمرٍ له عرض، فتفهم من خطابه ما لها فيه الغرض، كما نَبّه على ضيعة العمر أرباب القلوب.

ثَلاَج:

يُنادي: ارحموا مَن رأسُ مالهِ يذوب، فاضطربوا وصاحوا وتباكوا وراحوا.

وتارة يخاطبها الطّفل الصّغير بخطاب العاقل الكبير، كما أخبر من عاهد ونكث، أنَّ الطّفل أكذبه، وفي وجهه نفث، فكان يسأله عن ذلك ويلاعبه، والطّفل لا يلوي عليه ولا يقاربه.

وتارة يخاطبها بعض أولي العقول وهو غافل، فلا يدري ما يقول كما أخبر السّائل عقيب قول القائل، لماذا لفظت؟ وماذا أردت؟ فأجاب: تاللّهِ إنّي غيّبت الآن عنّي، فلم أعلم أني نطقت، حتّى أذكرتني ذلك فأفقت، لكنّي لا أعلم بحالي، ولم أدرِ لماذا كان مقالي.

وتارة يخاطبها العالم العارف، فيكون لها كالمُكاشف.

وتارة تتخلّى عن الظّواهر، فتتجلّى في السّرائر، فيشاهدها الرّجل الحاضر، ويكلّمها بها على الخاطر، وهذا هو نصيبها الوافر، وبحرها الزّاخر، وهي في سائر هذه الأحوال المذكورة، والأقوال المسطورة، تناجي إيّاها وتناطقها في سواها، وذلك من أعجب العجائب، أن يكون المجيب هو المُجاب وهاهنا ظنَّ أنّ الملحد هو الموحّد، ولمّا لم يَرَ شيئاً سواه، وأعماه هواه، وظنَّ أنّه الله، فأبطل فضيلة الإنسان والقرآن، وحجّة الرّحمٰن، فنسب القبائح كُلّها إليه، وأحال فعل الطّاعات عليه، فلزمه أن يكون الباريء تعالى محتاجاً إلى المخلوقات، لأنّها مظاهره في استحالة دائمة،

يخلع صورة ويلبس أخرى، ولو فكّر هذا البشر فيما له خطر، لعلم أنَّ هذا أيضاً موطنٌ من مواطن النّفس، أدّاه إليه النَّظَر، فتنحّى حينئذٍ عن الخطر. وما غلق عنه باب الصّواب، إلاّ لعدم فهم الكتاب، فظنَّ أنّه وصل إلى التّوحيد، فأطلق نفسه فيما يريد، وكلّما قاده هواه، قال: هذا مراد الله، وهل من فاعل سواه، فأصبح عطلاً أعوجاً لا يستوي، وغفلاً جاهلاً لا يرعوي، واعتقد أنَّ الجميع من باب القسميّات والمواهب، فترك المكاسب، وخرج عن الواجب. وله بعد هذا المقام غلطات وأوهام. ولقد أعذر من أنذر، بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢].

نبأ عجيب ووعظ غريب:

المحصور في سجن رغباته، إذا مات في السّجن، سُجنَ فيها بعد الموت أبداً بصورة العطشان الّذي كلّما عطش شرب، وكلّما شرب عطش، فاستمرَّ أبداً في سجنه سرمداً، وإنّما كان في الآخرة كذلك لأنّه إنّما كان في الدُّنيا قد يثنيه عن استمرار تناوله من تلك الشّهور ضعف للآلة، كمن توجعه أسنانه من المضغ من وجود الشَّهوة، فلو فرضنا أنَّ الآلة لا تكلّ لما تصور النُّزوع، فكيف والآلة تزداد قوّة وضعفاً، فالقاطعون الشَّهوات في الدُّنيا يستمرُّون في الآخرة بمثل هذه الآلة لا تكلّ. فهم الخارجون من كلّ سجن، والدَّاخلون في كلّ أمن، فهذا حالهم أبداً، ولهم ملكة التَّرقّي سرمداً.

فيا مَن جعل قلبه بيتاً لشياطين شهواته، فهو يمدّهم بما يطلبونه منه، حتّى متى تعبد الجنّ، ومتى تخرج من السّجن.

شعر: [السريع]

السّجنُ سِجْنُ الشّهواتِ الّتي ... قَدْ أوْقَعَتْ في الهَمِّ والحَزَنِ
فكلُّ مَن يخرجُ مِنْ سِجْنِها ... يَخرجُ لا شكَّ من السِّجْنِ
والجنُّ محجوبونَ فينا لهمْ ... أغذِيةٌ في الخَوْفِ والأمْنِ
مِنْ شَهواتِ النَّفسِ ذاتِ الهَوى ... فَقُلْ لِمَنْ يَفهمُ ما أعْني
مَن كانَ موقوفاً على شَهْوةٍ ... فذاكَ عِنْدي عابدُ الجِنِّ

وخلق الله العالم، وشرع ترك الشَّهوات، وترك الوقوف مع الجسمانيّات إلاّ ما لا بدّ منه، وهو الطَّريق الموصل إلى الغرض باللّذيذ لا عين اللّذيذ، فمن قويت نفسه

هاهنا على ترك المنهيّ عنه كلّه، قويت هناك على ترك مثله، فقطعت فسارت، وهذا السَّير هو جنّة النَّفس والواقفات جنّاتها الشَّهوات التّي وقفت معها، فمن لم يحتجب هاهنا لم يحتجب في الآخرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القِيَامَة: ٢٢، ٢٣] فقد بان لك أنَّ النَّفس تكون مترقّبة أبداً، إذ مطلوبها ليس له آخر، وأنَّ الشَّهوات حجابٌ، وظهر سرٌّ من أسرار الشَّريعة.

غاية ما في الباب لمن عنده علم الكتاب:

صفتكَ الحقيقيّة هي التي أُمرتَ بها، وهي ما أراده بك لك، وسمّاه له كرماً عليك، وذلك هو المثبوت في كتابه إليك، بحسب الكتاب، لا بحسب فهمك من الخطاب، وإلى هذا يُشار بقول القائل: للّهِ وباللّهِ فافهم، والله أكبر، فمتى قمت به في حالٍ من أقوال أو أفعال، ولم يبقَ شيءٌ من هواك، لم يبقَ إلاّ إيّاك، وهذا غاية مُناك، ومتى عدتَ إليك، فقد رجعت عنك الّذي هو بهِ، وكذلك فانظر في الكُلِّ مثالَهُ:

مُخاطبٌ خاطبَ غيره بحكم الكتاب، فقامت حقيقة المخاطِب في ذات المخاطب صورة تعطي ولا تُخطىء، فمتى مال المخاطب ذرّة عن حقيقة إيّاه، تغيّرت فيه حقيقة سواه، فظهر منحرفاً عن الكتاب، فوقع عليه الإنكار في الجواب، فحصل الخلاف والجدل، وسقط القول والعمل، لتغيّر الحقيقتين المطلوبتين من الاثنين، التي هي غاية المتخاطبين. فانحراف الثّاني لانحراف المقدّم، فإن تكافيا في الانحراف سقط الإنصاف، والّذي ترك هواه عاد إلى إيّاه، فارتفع الخلاف بالخلاف، وتلافى غيره فأنقذه من التّلاف، وأدنى الغضب خروج عن الأدب، والخروج عن الأدب سبيل إلى العطب، وعلامة الوسواس تغيّر الأنفاس. وغَضُّ الأصوات فرض في المناجاة، وكما أنّ رفع الأصوات يمنع الأذن من السَّماع الظاهر، فكذلك يمنع القلب من النَّظر في الباطن، وأنبياء الله في الباطن هي العقول: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحُجرَات: ٢].

بيان:

الإنسان مُنطوٍ على سائر المخلوقات، فليتفقّد أفعاله دائماً وينسبها، فمهما استمرَّ على فعل، ورضي به، فهو من قبيل صاحب ذلك الفعل، كالشّهوة للخنزير، والفساد للشّيطان، والتّسبيح للملائكة، وما شاكل ذلك، وهو معنى قول موسى عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القَصص: ١٥].

موعظة وتعليم:

يا من ابتُلي بكُلّ ما لديه، فطولِبَ بالصَّبر في حاليه، وكلّما عجز عن حمل حمله زاد عليه بطَلبِ الباقي بالإيماءِ إليه، ويتمسّك بالفاني بكلتا يديه، وإذا دُعي تصامم، وإذا بصر غمَّض عينيه.

شعر: [السريع]

مُكِّنتَ مِنْ أمرٍ عَظيم عَجيبْ ... قالَ لكَ اللّهُ: ادعُ إنّي أستجيبْ
وَصْفَكَ تُجزى كُنْ كما تُرْتَضى ... غَيِّزْ أُغَيِّزْ، ادنُ إنّي قَريبْ
لكَ اختيارٌ ثمّ لي قُدرةٌ ... مُحدثةٌ عندكَ مِنْها نَصيبْ
ومَنْزِلي فيهِ شِفاءُ الوَرى ... والعَقْلُ يهديك كالطَّبيبْ

بيان: [الكامل]

فيكَ العوالمُ كُلُّها موجودَةٌ ... والكُلُّ نحوكَ مستكينٌ قانِتُ
ولأجْلِ كونِكَ كانَ كُلُّ مُكَوّنِ ... والحيُّ أنتَ، وكُلُّ شيءٍ مَائتُ
والجنُّ فيك مَقامُهم وقِيامُهم ... وكذا الملائكُ ناطِقٌ أو صامتُ
فإذ غَفِلْتَ فعالَمٌ متبايِنٌ ... وإذا عَقلتَ فما هُناكَ تفاوتُ
وتغايُرُ الرَّأي يُريكَ تغايُرَ الـ ... مَرْءِ وهو على الحَقيقةِ ثابتُ

زيادة نظم: [الرجز]

في رُوحِكَ الأرواحُ والعَوالمُ ... ألا تَرى ذاكَ وأنْتَ نائِمُ
فَفيكَ كُلُّ حاضِرٍ في غَيْبَةٍ ... والكُلُّ أنتَ عالَمٌ وعالِمُ

جهل: [البسيط]

لمّا غَدَتْ جُملةُ الأفعالِ عائدُها ... عليكَ من كُلِّ فِعْلٍ أنتَ فاعِلُهُ
ظَنَنْتَ إذْ أنتَ مَعبودٌ لذاتِكَ أنْ ... نّ اللّهَ أنتَ، فأنتَ الآنَ جاهِلُهُ

إيضاح: [الطويل]

ومَحْجوبةٍ فيها الملاحاتُ كلُّها ... وقَدْ زارَ وَهْناً طيفُها في دُجى الحُجْبِ
لها الحُسنُ سِربالٌ ومَعنى جَمالِها ... تجلّى من المعشوقِ للعاشقِ الصَّبِّ
حكَتْ كُلَّ ما في الكونِ والكونُ كلُّه ... حَكاهَا فأضْحَتْ للدَّوائرِ كالقُطْبِ

مظاهرُها حُجبٌ لهَا ولغَيْرِها هُدَى فَتُريهِ البُعْدَ في غَايَةِ القُرْبِ
إذا قَطَعَتْ سُبُلَ المظاهِرِ وانثنَتْ إلى ذاتها بالصِّدْقِ في مَوْطِنِ الحُبْ
أُشَاهِدُها في مَسْمَعي وَبِنَاظِري وفي سِرٌ سِرِّ الرُّوح منّي ومِنْ لُبّي
بَدَتْ ذَاتُها تُجلَى لَها أحديّة تخرُّ لها ما في السَّمواتِ والتُّربِ
لِهذا تَرَقَّتْ في المظاهِرِ واختَفَتْ وعَادَتْ بأَنْواعِ العَجائبِ والعُجْبِ
ومِن سُوسِها ضِدّانِ في واحدٍ لهُ يقولُ، وعنهُ القولُ في العُذر والعَتْبِ
فَعاشِقةٌ مَعْشوقةٌ ذَاتُها لها مُحِبٌ ومَحبوبٌ على البُعْدِ والقُربِ
هي العَبْدُ عَبْدُ اللّهِ جبريلُ عَالِمٌ أُخَاطِبُها غَيري وأغني بها قَلْبي
إذا عَدِمَتني كُنْتُ مَعْنى وُجودِها وإنْ لَمْ أكُنها قَدْ رَجِعْتُ بلا رَبِّ

إيضاح:

النَّفس حقيقة تنمو كُلَّ آن، فهي غيرها لتغيّرها مع الأحيان، ولها تصوّر ويمثّل ما يكون، ويحفظ ما كان ودوام سير الفلك يعطي أن لا وقفة للزَّمان، فإذا تصوّرت ذاتها في الماضي والآتي من الأزمان، وإن كانت واحدة فالمخاطب والمخاطَبُ اثنان.

شعر: [الطويل]

هيَ النَّفسُ تَنمو دَائماً ونُموُّها دَليلُ حُدوثِ العَالَمِ المتجدِّدِ
زِيادَتُها في أمْسِ دَلَّتْ حَقيقةً على أنَّها في اليومِ أنْقَصُ مِن غدِ
فَنُقْصانُها بالذَّاتِ أصْبَحَ شاهِداً لِرَبٍّ بَراها بالكَمالِ المؤبَّدِ

تنبيه:

اعلم إنّما ترى الأشياء بحسب نظرك، فيقال: إنَّكَ الرَّائي والمرئيّ، وليس لاتحاد الحقيقتين. واعلم أنّ المرئيّات كلّها لها اعتباران، أحدهما من جهة الرَّائي، والآخر من جهة المرئيّ في ذاته، فالمرئيّ في ذاته له حقيقة غير حقيقته الحاصلة له وَصْفاً من حيث الرَّائي، فمن قطع إيّاه رأى الأشياء على حقائقها من جهة ذواتها، لا بحسب نظره. وهذا محلّ نظر الأنبياء عليهم السَّلام، وأمّا غيرهم من سائر الخلق فإنّما يرى ما يراه باطناً وظاهراً، نوماً ويقظةً، بحسب نظره لا بحسبِ المرئيّ في ذاته، فدرجة العوام رؤية الواحدِ كثيراً، ودرجة الخواصّ رؤية الكثيرِ واحداً، وأعني بالخواصّ هاهنا المنفردين عن الأنبياء، وكلاهما مَرَضٌ، إذ يعرض للبصيرة ما يعرض

للبصر، كما يعرض من تغيّر المرائي لتغيّر لون الجليديّة، فتارة يتغيّر المتغيّر ألواناً، والمرئيُ واحدٌ في لونه، وهو مثال درجة العوام، وتارة يثبت التّغيّر على لونٍ واحد، فيثبت المرئيّ ضرورة، وهو مثال درجة الخواصّ، ومن هاهنا قالوا: إنّ الكُلَّ واحد، وقد علمت أنّه من تغيّر لون جليديّة عينه إلى الصّفرة، فشاهد الأصفر أصفر، لا يُقال: إنّه صحيح النّظر لكونه وافق لون المنظور إليه في ذاته، لون النّاظر في صفاته إلاّ عند غير الحكيم المعتبر، فقد علمت أنَّ مرض أرباب الدّرجتين، وهو من قبيل واحد، وهو فساد النّظر، ولا صحّة إلاّ مع الأنبياء عليهم السّلام، وأتباعهم الّذين تركوا أهواءهم، إذ نظروا إلى اختلاف الأشياء في ذواتها، وهو الاختلاف الذّاتي للمنظور، لا الاختلاف العرضي للنّاظر، ورأوا للجميع فاطراً واحداً، ولم يروا الكُلّ واحداً، بل عن واحد، ولهذا قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعَام: ٧٩]، واكتفى ذكرهما عن ذكر ما فيهما.

واعلم أنَّ درجة العوام أشبه بدرجة الأنبياء من درجة الخواصّ بزعمهم وإن كانوا خواصًا بالنّسبة إلى العوام، فلاختصاصهم بمرض واحد دون أمراض شتّى.

صفتان:

رُبَّ عابدٍ هواه رأى خياله في المرآة وحسبه إيّاه، فترك ما عداه ولم يتعدّاه، ظنًّا منه أنَّ ذاته مولاه، إذ لم يرَ شيئاً سواه، وقامت بشبهة شكوكه دعواه، فأعمته عن عماه، فقال: أنا الله. وإذا نام هذا المصاب تقطّعت به الأسباب، فكيف به عند الانتباه، يوم كشف الغطاء، وزوال الاشتباه.

ورُبَّ عابد بايع مولاه على ترك ما سواه، والرِّضا برضاه، ورأى الإيمان بالغيب أولى من كشف الحجاب، فقطع الأسباب، ولم يطرق الباب، ومن أراد غير الله، فقد عبد هواه. ومن أراد رضاه لم يعبد إلاّ إيّاه، وإقدام ذي الإقدام على المقام بهذا المقام، قامت على قمّة الاصطبار، وعلت على متون الجنّة والنّار.

نظم: [الطويل]

تَحَيَّنْتُ وَقتاً إذْ تَخيّرتُ مَنزِلاً لتَهيئةِ المصباحِ والزَّيتِ أوّلا
وبالَغْتُ في حُجْبِ الهواءِ مُحَدِّقاً إليهِ زَماناً ما بِصِدْقٍ فأُشْغَلا

تعريف وتوقيف:

إنَّ من كشف له من الجمال لمحة الخيال، جدير به أن يهيم طرباً، ويتقطّع إزباً، ولعلّة لو تبرقع بالأكوان، وتمزّق في كلّ آن، كما وُفي حقّ لمحبّة، ولا عني

بقدر نشأته، وهذا حجب بكشفه، فوقف لضعفه ينحت له من ذاته آلهة دون الله، أو يتّخذ منعه إلهاً سواه، لأنّه يشهد بقدر ذاته، ويرى بمقدار مرآته، والّذي تحقّق قصده تقدّم وحده، فهو الصَّبّار السَّيّار من وراء الأستار، في غيب الأسرار، لا يختار إلاّ أن يختار حتّى يطلع النَّهار، وتستقرّ به الدّار.

نظم: [الطويل]

أُحِبُّكَ والأستارُ تَحجِبُ بينَنا ... فكم مرّةٍ عَنّي تستَّرْتَ بالكَشْفِ
ولَمْ أرَ غَيْري في المظَاهِرِ كُلِّها ... فَلَمْ أرْضَني لي بَعْدَ ذَاكَ عَلى ضَعْفي
وإنَّكَ فوقَ الفَوْقِ مِن كُلِّ ناظرٍ ... فدونَكَ ما أُبديهِ عَنْكَ وما أُخْفِي

تنبيه ووصية:

اعلم أنَّ الله تعالى جبل في جبِلَّةِ الإنسان سائر الأشياء، فمن ذلك ما يستخرجه الإنسان من ذاته بالفكر والتَّعقّل، والتَّصوّر، والاستنباط. ومنه ما يُلقى إليه وحياً من ذاته، إمّا بأمثال، وإمّا على صورته، وذلك إمّا نوماً وهو عند ركود الحواس وقطع العلائق والعوائق الطَّبيعيّة، وإمّا يقظة متى أدّته الرّياضة، إلى مثل ذلك بعينه، والفرق بين الأنبياء وغيرهم، أنَّ الأنبياء يوحى إليهم من ربّهم، وغيرهم من أنفسهم، أعني بقدر استحقاقها، يُفاض عليهم بحسب القابليّة لا القدرة، ولهذا عمّ نفع الأنبياء، فغير النبي إذا صفت ذاته، وأدركت شيئاً من الحقّ الصحيح، كان ذلك الإدراك من قبل إيّاها بوجه، ومن قبل ربّها بوجه آخر، والمدرك واحد لا يتغيّر.

كما أنَّ العبد ملك لزيد، وهو بعينه ملك لله تعالى، ولا شركة، فالمركوز في جبِلَّة النَّفس ثابت فيها من حيث الخلقة، وهو مستور عنها بعوائق الحواس الباطنة والظَّاهرة، وقد جعل الله لظهور ما فيها شروطاً عائدها تارة إلى العبد بإرادته، وتارة بغير إرادته كما في النَّوم، ويرجع إلى كسب، أو هِبَة، فإذا قيل: علم زيد كيت وكيت، فهو علم من جهة نفسه، وهو بعينه من جهة ربّه، فما كان بغير إرادته فهو إمّا هبة، ولا يكون إلاّ حقًّا، كما يكون للأنبياء، وإمّا جزاء ويكون حقًّا وباطلاً، فما تعلّق للعبد به، فلا حاجة إلى ذكره، إذ لا يُجْزَى إلاّ بكسبه. وكلّ ما هو راجعٌ إلى العبد، فإنّما هو من نفسه لنفسه، وكلّ ذلك دون رتبة الأنبياء عليهم السَّلام، ومن طالع ذاته مستقرئاً، رأى ما لا عين رأت مخلوقاً بها حاضراً مجبولاً في جبِلّتها. ومن تحقّق أنَّ ذاته مأوى الكلّ من الماضي والمستقبل، فإنّه لا يحزن على شيء من الفائت عند مفارقته له، إذ هو وغيره موجود معه فعاد غنيًّا بذاته، وهذا علامة الذّائق دون العالم

فقط، وهذا الذّائق إذا تحقّق أنّ ذاته محدثة، وإنّ المحدث لا يدرك محدثه بوجه أنف من نفسه لنفسه، إذ كلّ ما وصل إليه إنّما هو منه فهو محدث مثله، فلم يرضَ لنفسه بنفسه فضلاً عمّا يرد عليه منها فقام ينفي علومه، وينكر معارفه، ورجع عن الغنى المطلق إلى الفقر المحقّق، فاتّبع الأنبياء، وعبد، فلزمه القيام بالشّريعة فسجد.

شعر: [الكامل]

مَـرَّتْ لُـوَيـلاتٌ بـتـلـكَ الأرْبُـعِ ... بـيـنَ الـنَّـقـا والـمُـنْـحَـى ولَـعْـلَـعِ
أطـوفُ لَـيْـلـي ونَـهـاري هَـائـمـاً ... مـا بـيـنَ بـانـاتِ الـلِّـوى والأجْـرعِ
حتَّى سمعتُ في الحِمى مُنَادِياً ... كـانَ بـهِ قَـلْـبـي يُـنـاجِـي مَـسْـمَـعي
فَـعُـدْتُ مِـن بيـنِ الـطُّـلـولِ مُـعْـلِـناً ... أنَّ الَّـذي أطْـلُـبُ مِـن غَـيْـري مَـعي
ثُـمَّ انْـثَـنَـيْـتُ بـعـدَ ذاكَ زَاهِـداً ... فـيَّ لأنِّـي مُـبْـدِعٌ لِـمُـبْـدِعـي

نظم: [المجتث]

خَـرَجْـتُ مِـن حَـضْـرِ حَـبْـسِـي ... مِـن حـيـن فـارَقْـتُ جِـسِّـي
فـكـنـتُ أشْـهـدُ ذَاتـي ... فـي كُـلِّ جِـنٍّ وإنْـسِـي
حَـتَّـى بَـدا لـي حِـجـابٌ ... فـلاحَ لـي كَـشْـفُ لَـبْـسـي
فَـعُـدْتُ أنـفـرُ مـنّـي ... مِـن بـعـد بـي كـانَ أُنْـسـي
فـصِـرْتُ أنْـفـي عُـلـومـي ... عـنّـي وأُنـكـرُ حَـدْسِـي
رَجِـعْـتُ عَـبْـداً ولـكـنْ ... قَـدْ كُـنْـتُ ربًّـا وبـسّـي
فـغـايـةُ الـكـونِ كَـوْنـي ... فـي الـكـونِ أعـرِفُ نَـفْـسـي
ولا أرَى لـي عُـلُـوًّا ... إلاّ الـدُّنُـوَّ لـرَمْـسِـي

رضا: [الوافر]

ولـمّـا أنْ جَـفـانـي بَـعْـدَ وَصْـلٍ ... وبـاعَـدَ كـلَّ مَـحـبـوبٍ قـريـبِ
رضـيـتُ رضـاهُ حـتّـى عـادَ بـعـدي ... لـمـنـزلـةِ الـوصـالِ مـن الـحـبـيـبِ
فـصـار نَـصـيـبـهُ مِـنّـي رِضـاهُ ... وصـارَ الـبُـعْـدُ مـنـهُ لـي نَـصـيـبـي

نظم: [الكامل]

لَـذَّ الـبَـلاءُ لَـهُ إلـى أنْ ذاقَـهُ ... منـح الـنَّـعـيـم أتـى بـغَـيـرِ حِـسـابِ

مثله: [الخفيف]

كَيْفَ أشْكو ضَرَّاءَ تَفْنَى وبالصَّبْـ ـرِ عَليها أغْدو لديْكَ كَريما
كُلَّما ازْدَدْتُ مِن شَقاءٍ شقاءً زُدتُ في حَالةِ النَّعيمِ نَعِيما

مثله في المعنى: [مواليا]

ألقَيتَني في بحارِ الخوفِ والهِجران وَحْدي ومنكَ بَلائي غايةُ الإحسان
زِدْني إليكَ صَباباتٍ مع الأحيان ولا أقولُ أقِلْني كانَ مهما كان

ذوق:

العاشق اشترى رضا معشوقه بكلّ الأشياء، فمن الأشياء ما يملكه، ومنها ما لا يملكه. فأمّا ما يملكه بذله بطيبة نفس بين يديه، وأمّا ما لا يملكه فإنّه لم يحزن عليه، وكيف يحزن المشتري على ما بذل في بضاعته، وهو أربح الرابحين في تجارته، فمهما خطر في السِّرِّ والعَلن، قال: وهذا من جملة الثَّمن، وعلامة صدق هذه الدَّعوى عدم الشَّكوى:

[الوافر]

وليسَ الغدرُ من شيم الكرام

﴿ ۞ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبَة: ١١١].

فطرة:

لمّا كان الطِّفلُ لا يعرف عند الولادة شيئاً كان على الفطرة، وإذا وصل الكبير إلى حَدٍّ أن لا يعرف أنه لا يعرف عاد إلى الفطرة.

تجريد:

نظم فيه: [السريع]

تُبْ هارباً مِن كُلِّ مُؤذٍ فما يؤذيكَ إلاّ كُلُّ ما تعرفُ
وَفارِقِ المَحْبُوبَ مِن كُلِّ ما يوصَفُ فالمَحْبوبُ لا يوصَفُ

في المعنى: [مجزوء الكامل المرفّل]

يَــا جَــاذبــي عَــنّــي إلَــيْــ ـهِ بــكــلٍّ مــا لــي عَــنْــهُ جــاذبْ
أنــتَ الــحــجــابُ عَــنِ الــحِــجَــا بِ فكَشْفُ حُجْبِ الكَشْفِ حَاجِبْ

إشارة: [البسيط]

إنّـي ظـهـرتُ إيّـايَ عـلـى عَـدد الـ ـأنفاسِ مُحْتَجباً في سائرِ الصُّوَرِ
والكُلُّ غَيْري ولا غَيْري يُعاملني خاطرتُ إنْ كُنتَ مِنْ غَيْري عَلى خَطرِ
وأيـنَ غَـيْـري ولـو أنّـي نـظـرتُ إلـى إيّـايَ غَـيـري فـإنّـي فـاسـدُ الـنَّـظـرِ
ناجيتُ سِرِّي وناجاني فما شَهِدْت بَصِيرتي عينَ ما شاهَدْتُ بالبَصَرِ
والأمْر بالعكسِ أيضاً إنْ فطنتُ له فـهـاكَ يـا أنـا لُـغْـزي وادرِ مـا خـبـري

مثل هذا يقول العبد العارف، وهو صادق، ومثله يقول الغالط، فيقال له: [البسيط]

هـذا نـهـايَـةُ مَـن رامَ الـنِّـهـايـة فـي الـ ـعرفانِ ثـمّ انثنى من سائرِ البَشَرِ
فـظـنَّ لا غـيـر إذ لا غـيـرَ شـاهـدهُ فـظـلَّ يـهـدرُ فـي الـتّـوحـيـدِ بـالـقَـدَرِ
والحقُّ من بعدُ فوق الفوقِ لـم يرَهُ إلاّ الـنّـبـيُّ ومـن يـقـفـوهُ فـي الأثـرِ
فـدَقّـقِ الـفِـكْـرَ يـأتِ الـعـقـلُ مـعـتـرفـاً بالجهلِ فالجهل هادي العَقْل بالفِكرِ
إنَّ الّـذي فـطـرَ الأشـيـاءَ فـاعـتَـرفَـتْ بـهِ وإنْ ضـلَّ عـنـهُ سـائـرُ الـفِـطـرِ
فانهضْ وسِرْ عنكَ يا مَن لا سواهُ إلى سـواكَ بـالـغَـيْـبِ إيـمـانـاً عـلـى حَـذَرِ
فـالـكلُّ مـنـك وأنـتَ الـعـبـدُ مـقـتـدراً بالكَسْبِ قد جئتَ بين الجَبْرِ والقَدَرِ

صاحب الوقت من صحبه: [السريع]

مــن صــحــبَ الــوقــتَ فــذاك الّــذي مــن كــلِّ مــحــذورٍ لــهُ الأمْــنُ
فالخوفُ في الماضي وفيما مضى الـ ـحُــزنُ فــلا خــوفٌ ولا حُــزنُ

في معناه:

الحزنُ تَحيُّرُ القلب، وشغله بالفكر، والتأسّف على ما فات من الدُّنيا.

وقيل: هو شغل القلب وفكرته في ما يُخاف ويُرجى في المستقبل من غنى أو فقر، وغير ذلك من الحوادث الطّارقة المتوقّعة.

وقيل: الحزن والهمّ بمعنى واحد، وقيل: الحزن على ما فات، والهمّ على ما هو آت.

معراج وغاية: [الخفيف]

إنَّ خيرَ الدَّارينِ في الفِكْرِ فالفِكْـ ـرُ إلـى كُـلِّ غـايـةٍ مِـعـراجْ
فاحرسِ الفِكْرَ ذاكراً وارصُدِ المَطْـ ـلوبَ تَـظْـفَـرْ بـكـلِّ مـا تـحـتـاجْ

إطّلاع:

عُد إلى سِرِّك عند حدوث الحادثاتِ متخلّياً عن سائر الموجودات، مقابلاً بذاتك ذات الذّات، ثمّ قف هُنيئة تجد هيئة تدلّك على ما سيكون من الكائنات.

عقل:

العقل الغريزيُّ كالسِّراج، والمكتسب كالدُّهن يمدّه.

مثال:

لو أنَّ ملكاً من ملوك الدُّنيا واعدك أن يحضرَك لديه في بعض الأيّام، لكُنتَ ليلَتك لا تنام، بل تهجر الأنام، وتتجنَّب ما لا يجوز من الطّعام، وتستعدّ بأحسن الكلام، وبكُلِّ حالة تبلغك المرام. وقد علمت أنّ الموتَ آتيك، وبكلّ حالة يناديك، فاجعل فكرك فيك، وخذ ممّا تحبّ ما يكفيك، فإنّ الملك داعيك، وأعمالك تلاقيك. فتأمّل هذا المثال، وخُذ بهِ في كُلِّ حال، واعمل للمآل قبل أن يبغتك قاطع الآمال.

موعظة ووصيّة:

كن في جسدك كَمَيتٍ في قبره، لا يؤنسه إلاّ ما عمله، ولا يوحشه إلاّ ما قدّمه، وإنّما تشاهد في رمسك ما تُشَاهده الآن في نفسك، فانصرف بفكرك إلى ما يؤنسك في قبرك، فإنّك وحدك ساكن لَحْدَك، فإن اشتبهت عليك المعاني فاعرفْكَ بميلكَ إلى الفاني، فإنّما لك من حالك ما تصحبه بعد ترحالك.

معراج:

نظم: [مخلع البسيط]

يـا أيُّـهـا الـشَّـاعِـرُ الـمُـجـيـدُ إنّـي لـكَ الـنَّـاصِـحُ الـمـفـيـدُ

دَعْ كُـلَّ وادٍ تـهـيـمُ فـيـه وهِمْ إلى ما بِهِ المزيدُ
فيكَ مِثالٌ يُريكَ ما لا ترى، ونحو الحِمى يقودُ
كأنَّهُ قال فيك حالاً يكفيك ما منك تَستفيدُ
مِعراجُكَ الفِكر فاصنغْ واصْـ ـعدْ فها هنا الوَجْدُ والوجودُ
من هاهُنا عِلْمُ كُلِّ شيءٍ فاطلُبْ مِنَ اللَّهِ ما تُريدُ

قيل لمن أكل حشيشة الفقراء: من أمّ مرامه بالوسائط، من المركّبات والبَسائط فقد أخطأ الصَّواب، ودخل من غير الباب، ومن كانت غايته جلاء مرآته، وتكميل ذاته، فهو الاسم والطِّلسم في الحال والمآل، وهو صاحب الأقوال والأفعال، البالغ غاية الآمال.

محدود وغير محدود:

للعقول حدٌّ تقف عنده من حيث هي مفكّرة، لا من حيث هي قابلة، وليس لها حدٌّ من جهة القبول، إلا ما هو فوق طور العقول.

موت:

[السريع]

قَدْ خِفْتُ مِن مَوْتي على غِرّةٍ فلم أخَفْ إلا مِنَ الفَوْتِ
حتّى لقد أوقَفني دائِماً خَوْفي مِنَ الموتِ على الموتِ

بيان:

الذَّاتُ تشهد ولا تعلم، فالعقل من جهة العلم دونها، والمعرفة بالسَّلب غير المعرفة بالإثبات، فلم يبقَ غير الإيمان بالغيب أو الشَّهادة كما تقدم، والشَّهادة لا تكون في هذه الدَّار.

غلطة الجبريّة ظنُّوا أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسَان: ٣٠] وما تشاؤون إلا ما يشاءُ الله، فافهم.

نظم:

[الرجز]

أبْدَعَ مَخْلوقاتِهِ فَمِنْهُمُ خلائقُ بَيْنهُمُ الخُلْفُ فَشا
قالُوا: لهُ مشيئةٌ سابقةٌ فينا ونحنُ ما لنا أنا نَشا
قلنا: صحيحٌ سَبقتْ مَشيئةٌ وكلُّ ما نشاءُ فيهِ يَشا

فشاءَ ما شاءَ على ما شاءَهُ وشاءَ أن يخلقَ مخلوقاً يشا

تحقيق:

فما أنت به أنت هو، وهو بما هو به هو أنت، إلا أنَّ إحدى الغايتين في الأخرى مدرجة مُدْمَجة، من حاول تميّزها منها حاول عسيراً، ومن شعر بالوجد منها بقي حسيراً، وكلّ بشريّ نال هذه الحالة فقد برىء ممّا كان به منقوصاً ورقي إلى ما صار به مخصوصاً.

ضلال:

القلوب بمنزلة الأرض، تنبتُ ألواناً من العقائد، والقرآن بمنزلة الماء يمدّ الكلّ، فافقه جيّداً.

في المَيْل:

إنّما أنت ما ملتَ إليه.

نبأ:

وكما أنه لا سبيل للجنين أن يدرك ما في هذا العالم، كذلك لا سبيل للمتعلّقين بالأجسام أن يدركوا ما في ذلك العالم، ولمّا غمض الأمر أُمِرْنا بالإيمان بالغيب، وإذا كان التَّرقّي مستمرًا في الكلّ من عَدَمٍ إلى وجود، ونسبة الثاني إلى الثّالث، كنسبة الأوّل إلى الثّاني، فكيف يدرك المعدُوم وجوده قبل أن يوجد فيه، وهل إلا ضَرْبُ المثل، فبهذا جاء الكتاب المنزل، والمراد من إبداع ما يفنى هو غاية تبقى، ومن رام أن يطّلع على الغاية الباقية في الذّاتية الفانية، فقد خرج عن الطَّريق، إذ سِرُّ الدُّنيا يُعلم في الآخرة. فكيفَ يُعلَم سِرُّ الآخرة في الدُّنيا. ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدَة: ١٧] وليست السّعادة هي اللّذّات، بل اللّذّات تابعة للسّعادة، وإنّما السّعادة اللّقاء، وليس اللّقاء حقيقة المعرفة، بل أن تتلاقى في حقيقة الصِّفة، ومن اتّصف فهو الّذي عرف.

وصيّة:

اجعل دأبك احتمال الأثقال، وارتكاب الأهوال في كلّ آنٍ وحال، فمهما أنت كذلك، فأنت السّالك، ومتى جنحت إلى اللّذّات والرّاحات، والفتاوى والمسامحات، فأنت مستدرج لقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ [الأعرَاف: ١٨٢]. . الآية.

شعر: [الخفيف]

خُلقَتْ نَفْسُهُ لِحَمْلِ المَشَقّا تِ فيلتذ حينما تَعتريهِ
وإذا ما خلا من الهمّ في حيـ ـن يرى أنَّهُ بلا شكّ فيهِ
ويرى المُتعباتِ فيها مِنَ الرَّا حاتِ للقَلْبِ كلّ ما يرتجيهِ
ذا لمنْ رامَ وَصْلَ مِثْلِكَ في دُنياهُ يا مُفرداً بغيرِ شَبيهِ
قَدْ رأى الصَّعبَ في المحبّةِ سهلاً وأمَرَّ الأشياءِ حُلواً بِفيهِ

فكر:

الفكر السَّيَّال المبتدر هجماً في كلّ وادٍ، هو جاسوس الفؤاد الآخذ لصاحبه إلى الإلحاد، وهذا هو الأولى بالجهاد من سائر الأضداد، فانفهِ عن البلاد، واحذر منه التّرداد، فإن عاد فقف له بالمرصاد، حتّى تبلغ منه المراد، وإن عجزتَ عن طرده، فاشغله وإلا شغلك، واقتله وإلا قتلك.

موعظة في وقفة:

كلّ شيء يؤذيك فهو رحمة عليك، لأنّه منبّه من رقدة الجهالة والغفلة، ألم ترَ من رحمته العُجاب في لدغ البراغيث وقرص الذُّباب. فما نبّه النّائم هو أولى أن ينّبه اليقظان، فكم هذه السِّنة بالانتباه، وطلب الهداية بالاشتباه، وكم هذا النّسيان بما يذكر، والغنى بما يفقر، والصحّة بما يُعلّ، والعزّ بما يذلّ، والرّيّ بما يُظمي، والنَّظر بما يُعمي، اقلب النَّظر قبل أن ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [المُلك: ٤].

إذا أحببتَ الخروج من السِّجن، فقد أحببتَ الدُّخول إليه، وإذا كرهت الموت، فقد كرهت الحياة، فيا عجباه من عقل مقلوب، يحبّ المكروه، ويكره المحبوب.

موعظة:

يا هذا اخترط لك الحقّ لساناً لا يمرّ بصدع إلا شعبه، ولا يقرع باباً إلا فتحه، فأعمله في الدُّعاء، فما كلّ وقت تحال على الماءِ والطّين، وعليك بصحبة من تخفّ برؤيته عن العالم السُّفليّ إلى المحل العلويّ، ويحلو بصحبته الحنظل الحوليّ، في قرآن تقرؤه، وتعلم غريبه وإعرابه، وتأويله وتفصيله، ومُتشابهه وأمّه، ولا تجد ذرّة إلا تدلّك على صفاءِ حالك، وإدراك كمالك، فعلمك لفظ، وعملك رفض، ووعظك خديعة، وعبادتك عناء، وكلّكَ هباء، فما أسخاك بحياتك، وأقلّ رحمتك لروحك،

فالرَّحيل عن هذه العَرَصة، التي قد تجرّعت فيها أنواع الغصّة. أما بك حاجة إليك، أما لك شفقة عليك، إلى متى ما تعرف إيّاك، ولا تحنّ إلى مأواك. أما تدري إلى من تنتسب؟ أما تعي من هو أوّلك وآخرك؟ فكم هذا الإنس بالوحشة، والمقام بالغربة؟ كم تكذب نفسك وتغضب إن كذبك غيرك؟

كم تخالف العقل وأنت تحتجّ به على سواك؟ كم تغرّ بهواك؟ كم تذلّ لشهوتك؟ هل لك خبر عنك فيما أريد بك يا مسلوب الإخلاص في العبادة؟ يا قليل النَّشاط في اقتفاء أثر السَّادة؟ إنّما عُمرك يومٌ لم تعص اللّهَ فيه، إنّما مطالبك معاطبك، ومألفك متالفك، فقم للطبيعة عاصياً مجيباً مستجيباً داعياً: إلهي حُلْ بيني وبين ما يحول بيني وبينك، وأعدني إليَّ، وأعذني منّي وأعنّي عليَّ.

وصيّة:

يجب أن تكون تغذية البدن كعلف الدَّابة، إنّما تطعمها لتحملك، ولا لتقضي شهوتها.

تحذير:

النَّفس خزانة إبليس فيها سائر أمتعته.

في الموت:

يا هذا اخطر ببالك كأنك تشاهد ذاتك مجرّدة خالصة في أمن لا خوف فيه، وغناء لا فقر يليه، وقوّة لا ضعف يخالجها، وقدرة لا عجز يمازجها، وعزّ لا ذلّ معه، وبقاء لا موت يقطعه، وكمال لا نقص يعيبه، وجمال لا شَيْن يشوبه، في ساحة لا أفق لها، وراحة لا نصب بها، وهي ملتذة بذاتها لذاتها، تنظر بنور لازم، وسرور دائم، وعلم مستقرّ، وشهود مستمرّ، ونعيم مقيم، وأمر عظيم. فكيف ترضى بعد هذا المقام في دار الآلام، وتقنع بِظلٍّ زائل، ولهوٍ عاجل، وتستلذّ سُمًّا قاتلاً في عيش باطل، مع صحبة الأموات، والتّقيّد بالفانيات، وعشرة الأضداد، والانهماك في الفساد، فَعُذْ عن هواك وأوِ إلى إيّاك، فما غيرك يرضيك، ولا فرصة لك إلا فيك.

نبأ:

ذاتُكَ فيك غيبٌ عنك، وذاتُه منك غيبٌ فيك، فهو معك أينما كنت، وبُرهانه عليك عجزك عنك، فإن لم تشهدك السَّرائر، فاشهدها بالنَّواظر.

نظم فيه: [الطويل]

فَذاتُكَ غَيْبٌ فيكَ والحَقُّ غَيْبُها وتأثيرُ غيبِ الغَيْبِ في الغَيْبِ ظاهِرُ
فإنْ لم تَرَ التَّأثيرَ بالغَيْبِ باطناً فَبُرْهانُهُ ما أشهدتْكَ النَّواظِرُ
وإدراكُ غَيْبٍ فيك ليسَ بِمُمْكنٍ وأنتَ معَ الأهواءِ والجسمُ حاضِرُ

تشبيه:

إذا كان الذِّكر بنغمةٍ لذيذةٍ، فله في النَّفس أثر، كما للصُّورة الحسنة في النَّظر.

حكاية:

قال بعضهم: حُبستُ مرّة بصورة من البُهتان، فدخلت السِّجن، وقوتي وحالي عليّ، فكنت أدعو فأُجاب، وأتصرّف فيما أختار على عادتي وأُنسي خارج السِّجن باطناً وظاهراً. فلمّا أردت الخروج أُخرجتُ، ولم أعلم أنّي كنت مفتوناً بذلك كلّه، ثم حُبستُ بعد ذلك بسنين مرّة ثانية بمثل ذلك بعينه فلم أجد لي حالاً ولا وقفاً ولا قلباً، بل أفلستُ من كُلّ ما كنت أعرفه من قوّتي وحالي، فنظرت إلى ما كان من كسبي فعلمت أنّه قد ران على قلبي، وعلمت أنّ حالي في الحبس الأوَّل كانت فتنةً وحجاباً، مازجه لطف لضعفي أوّلاً عن حمل ما حملته، ثانياً: لأنني في الثّاني رأيت أنه حبس معي أعمالي وآمالي، والتّفكُّر في حالي ومآلي، فاجتمع عليَّ همّي بقدر تقسّم فكري، وعزَّ عليّ صبري حتى بقيت في سجن باطن، قاسيت منه ساعة أحسبها من النّار الموقدة، ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهُمَزة: ٧]، فلم أجد إلا أن حملت على قلبي وسْقاً من ذنبي، وتوجّهتُ به إلى عفو ربّي، فتلقّتني من كرمه سبحانه رحمة قبل الوصول، اطمأنّت بها نفسي، وقوي قلبي، كان ذلك ليلاً، فأصبحت وقد فُرِّجَ عنّي من الحبس الظّاهر إلى حبسٍ أنا فيه أرْوَح من الأوّل، حتّى كأنّي لم أبقَ فيه محبوساً، ثمّ ألهمت ألا أخرج بأفكاري، حيث اختياري، لئلا أكون مخالفاً، وكذلك لا أتوهّم الخلاص، ولا أفكّر فيه، ولا في أسبابه، وأن أقف مع الوقت ظاهراً وباطناً، وأن لا أكتب فيه بأفكاري ولا بأقوالي ولا بأفعالي إلا ما أحبّ أن أقرأه، فلمّا لزمت هذه الحالة، ورأيت السّجن معيناً عليها، كنت أخاف أن لا أخرج قبل أن تصير لي ملكة، فعاد المرهوب منه مرغوباً فيه.

معرفة:

رأس المعرفة حفظ حالك التي لا تقسمك.

شكر:

رؤية النّعم بنفس النّقم، شاغل بالشُّكر عن الصَّبر، فالعالم رأى العدل في العسر الذي وقع فيه، ومعه اليُسر، فضلاً عن بارئه، فاشتغل بالشّكر على اليُسر فضلاً عن النَّظر إلى الصَّبر على العُسر عدلاً.

واعلم أنَّ الصَّبر صبران، أحسنهما صبرك على ما ترجو عاقبته، والحلم حلمان: أشرفهما حلمك عمّن حزت رتبته، والصِّدقُ صدقان: أصحّهما صدقك فيما خفت مغيبته، والوفاء وفاآن: أسناها وفاؤك لمن لا ترجو منفعته، ولا تخشى جريرته.

وقال: [السريع]

فالصَّبر في منزلةٍ فوقَها ... رُتْبَةُ عَبْدٍ مُبتلى شاكِرِ

وقال أيضاً، نظم في اليُسر: [السريع]

شغلت بالشُّكر عن الصَّبر ... لرؤيةِ اليُسرِ مع العُسْرِ
والعُسر عدلٌ مِنْ إلهي لما ... قدّمتُ مِن مَعصيةِ الأمرِ
واليُسْرُ فَضلٌ منهُ سُبحانَهُ ... قابَلَهُ العَالمُ بالشُّكرِ
ومَنْ رأى في العُسْرِ إصلاحَهُ ... فشُكْرُهُ في العُسْرِ كاليُسرِ

نظير: [البسيط]

أنتَ الغَيورُ على قلبي تُقلّبُهُ ... كما تَشاء وهذا مُنيتي أبدا
جَعلتُ غيركَ في قَلْبي لأجعلَهُ ... وسيلةً لي إلى حبِّك مجتهدا
وأنتَ أقربُ منهُ فاطّلعتَ على ... قصْدي فساعدتَ قلبي نحو ما قصدا
نَزَعْتُ كلَّ حَبيبٍ فيكَ نازَعني ... فيهِ فلَمْ تُبْقِ فيهِ منهمُ أحدا
وقلتُ بالحالِ وَصْلي في مقاطعةِ الـ ... جميعِ والرُّوحُ أيضاً تهجرُ الجَسَدا
ومَنْ رَأى بعده عن كُلِّ واسطةٍ ... قرباً إليك ففي فُقدانهِ وَجَدا

غيره: [مجزوء الرجز]

يا واصلي بقَطْعهِ ... يا قَاطِعي عَنْ قَاطِعي
فَرَّقْتَني عَنّي وأنْـ ... ـتَ بالفِراقِ جَامِعي
جَعلْتَني أُحدوثَةً ... في سَمْعِ كُلِّ سامعِ

إنْ ذَاعَ سِـــرِّي بَـــيْـــنَـــهُـــم سِـــــرُّكَ غَـــيْـــرُ ذَائِــــعِ
فَـــحُـــبُّـــهُ وَدِيـــعَـــتِـــي وذِكْـــــرُهُ وَدَائِــــــعِـــــي

عمل يحذر:

إذا رأيت من قطع العلائق، وخلا من العوائق، وأصلح العقائد، وحصّل الفوائد، وقهر العوابد، وهو قويّ النفس، غزير العقل، صحيح الدِّين، ثابت اليقين، وأحببت أن تزيده لتفيده، فتوجّه مدّة إليه، ثمّ بعد ذلك حِلْهُ عليه، واحذر أن تدخل في هذا بهواك، فإنَّك لا تقدر على شيء من مُناك، بل رُبّما أهلكتَ أخاكَ، وإن كان صادقاً في ذاته هلكت بنجاته، فاحذر جيّداً أوّل الاعداد أن تريه ما فيه، من أنّه يقدر أن يستحضر المعلوم نظراً بخاطره، وسمعاً بقلبه، كما قد يغمض عينيه، ويستحضر صورة والده، أو صورتك مثلاً، وكما قد يستحضر في قلبه سماع لفظ قد قلته له، ثم يؤمَر بالذِّكر باسم أنت تراه الأولى به في وقته، وحاله كما ستعلم، فإذا رأى أو سمع يحكي لك، فإذا حكى عرفت توجُّهَهُ، وأمددته من قِبَله، وحاققتهُ على الزِّيادة فيما يروي، فإنّها تفسد عليه. وللصّدق سرٌّ منكما، لا بدّ إذا اجتمع ولّد العجب من ذلك، إنّه متى صدقت نفسه، وصحّ توجّهه إليك، فصوّرت أنت إيّاك في صورة أو ملبوس، ووقفت بفكرك فيه، أو صوّرتَ نفسكَ شيئاً كالفيل مثلاً رآه، فأخبرته بما رأى، فإن كان ضعيفاً استدرجته بالكلام، كما تعمل في المندل، تحدّثه بما يجب أن يرى، ثمّ تتركه فيرى بغير حديث، فإذا صحّ في الجماعة وتوجّهه إليك، نَحِّهِ عنك، وأمُرْهُ أن يسلك الطريق بعينه مع الله عزَّ وجلّ، فقد عرفه بحاله. وأوصه أن يتحفّظ من الغفلة في أقواله وأفعاله، فبذلك يبلغ نهاية آماله، ومن الضروريّ له إذا وصل أن يمحو من نفسه موضعك الّذي حصل، فإن لم يفعل، فقد طرقت له باباً، وصرت له بعد ذلك حجاباً، والسّلام.

خاتمة:

قد علمت أنّ للنّفس حالاتٍ لا تحصى، وهيئات لا تُستقصى، فمنها ما يشبه حال أحد الحيوانات، أو المعادن، أو النّبات، كالخنزير في الشّهوة، والطّاوس في التّزيّن، والثّعلب في الحيلة، وغير ذلك. كذلك كالحشائش المرّة والحلوة، والتّرياقيّة، والأحجار ذوات الخاصيّة، وكذلك لها حالة ملك، وحالة شيطان، ولها ما فوق ذلك كلّه، وما تحته، ممّا يعلم وممّا لا يعلم، فمتى غلب عليها حال من سائر الأحوال ألحقت بما غلب عليها، فتعود النّفس بذاتها، ملكاً، أو شيطاناً، أو حيواناً، أو نباتاً، أو معدناً، أو غير ذلك مما علا ودنا.

وكما أنَّ لكلّ موجود في الكون أثراً في الوجود بحسبه على قدر قوّته وضعفه، كذلك لكلِّ حالة في النَّفس أثر إذا اتّصفت النَّفس بتلك الحالة، وتعود النَّفس مخاطبة لإيّاها بصورة ذلك الحيوان، أو الإنسان، أو الملك، أو الشَّيطان، أو ترى ما يوجب لها هيئة من الهيئات. وفي الشَّريعة في كثير من المواضع أسماء لحالات نفسانيّة، قد سمّيت كلّ حالة باسم، وكذلك ما جاء ظاهراً في الوجود إنّما ضرب لها به مثال، والمراد تلك الحالات لتستقرّ في النَّفس بالأمثال كما في قصّة آدم وإبليس، وغير ذلك، والمراد ما يستقرّ في النَّفس من المثل، لا نَفس المثل، فالكُلُّ في الدّارين أمثال أسماء لحالاتها، وتنبيه على الاتّصاف بأفضل صفاتها، وإذا استقرّ هذا فاعلم أنّه كانت أجزاء جسد الإنسان مثبوتة في العناصر، ولها نفس تخصّها، ثم انتقلت في الأطوار مترقيّة إلى هاهنا. فلما كملت البنية، وقفت ولم تقف النَّفس، فهي أبداً كما كانت تخلع وتلبس صورة تخصّها، كما كان القالب من حين العدم المطلق إلى أن وقف، وكما أنّه في كلّ طور يملك ما كان له قبله ويزيد على المقدّم تالياً، فكذلك النَّفس لا تزال حتّى تملك سائر الموجودات من الصُّور والهيئات، وسائر ما تعبّر عنه في المقولات، ثمّ تخلع ما في وسعها أن تخلعه من المعقولات، وتعود قابلة ما عليها، يرد من الواحد الأوّل كفاحاً، وهي أيضاً تخلع وتلبس مترقّية فقيرة إلى ورود الاستقبال، غنيّة عن الماضي والحال، ومن هاهنا جدّ السَّفر، ومُحي الأثر، وانقطع الخبر، والحمد لله والصَّلاة على رسول الله والسَّلام.

الباب الثالث

في المعمول

سبحان من أوجد من العدم موجوداً باقياً، وأبدع له عالماً يَعبرُ فيه فانياً، لينقله منه إلى عالم البقاء ثانياً، وجعله من أوّل الإبداع مترقّياً في العالمين دائماً سارياً، وزيّنه بالعقل فصار به مهدياً وهادياً، وجعل له الحواسّ الخمس مؤدّية إلى النَّفس، فعاد بها الخفيّ عنه بادياً، وضرب له بكلِّ أمثالاً، فجعل الكتاب العزيز أقوالاً، والمبين أفعالاً، ليظهر له بهما ما كان عنه خافياً، وجعل هذا العالم الأوّل المدركة معشوقاته مثلاً متفانياً، وصيّر معشوقات العالم الثاني مثلاً أعلى مضاهياً، فهناك أمثال معشوقات هي لطائف أشبهتها هنا معشوقات كثائف، فصار هذا لذاك محاذياً، ومن لدن الأول سبحانه فيض مشهود في ظلّ مبدعاته قد أصبح جارياً، حجب به المترقّي بمراقي الأذكار في سلّم الأفكار فانقلب إليه النَّصر خاسياً، وجذب به كليم الأسرار إلى نور الأنوار، فلما قال: ارقَ خرّ صعقاً متلاشياً، فسبحان من احتجب بمعشوقات العالمين، وجعلها أمثالاً وصيّر كُلاً إليها داعياً، وتعالى في غيبه، وتفرّد بالوحدانيّة فهو على صراط مستقيم ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحَديد: ٣]، سبحانه وتعالى عالياً، وصلّى الله على الرَّسول المعظَّم محمّد، الحبيب المكرّم صلاة دائمة وسلاماً وافياً.

أصل:

لا يجوز على الأوّل تعالى لفظ البسيط، ولا الانحصار في مثله، لأنَّ ذلك إنّما ظهر بالوجود، والله تعالى قبل الوجود، وقبل البسيط، فهو الواجب بضرورة العقل لزوماً. وأمّا العبارات فبهِ صارت، وكذلك كلّ ملحوظ، لأنّه تعالى تقدّم الملحوظ واللاَّحظ واللَّحوظ، والدَّاخل والخارج، فَحدِّق وانجمعْ واجمع أنوارك إلى لبّك، وانظر ممّن تطلب حاجتك عند الاضطرار، فإنّك لا تطلبها ممّن هو معدوم.

أصل:

شيئان لا يكونان واحداً من كلّ جهة، إذ لا بُدَّ من المميّز، ونفي المميّز نفي الإثنينية.

تدريج:

من لم يمت في صدر العوالم فهو محجوب، فإن وصل إلى هاهنا فهو حرّ، والعبودية فوق هذا المقام، فهي التَّلقي والتَّرقّي مما هو فوق العوالم.

تفهّم:

كلّ ما يبديه العلم فهو تحت العقل، فهو من العوالم.

إنجاز:

النَّفس معبودة للجسم، فإذا اتّصف بصفاتها فهو هي، هو من غير اتّحاد، والعقل معبود للنَّفس، فإذا اتَّصفت بصفاته فهي هو من غير اتّحاد. والحقّ معبود للعقل، فإذا اتّصف بصفاته فهو هو من غير اتّحاد.

إعلام:

عالم الصّفاء حجاب، لأنَّ به يكون الكشف، وهذا يشاركنا فيه الرُّهبان، وإنّما تفضل عليهم بعالم التّرقية.

تعريف:

كما أنَّ الخلق لما يكون في زمن، فكذلك الإبداع هو لما لا يكون في زمن، فالعقل فوق الحسّ، فلا يدرك إلا مخلوقاً، فإذا الإبداع فوق العقل، فعادت مدركات العقل كلّها أصناماً.

نظم: [الكامل]

مَـيْـلُ الـقُـلـوبِ إلـى سـواكَ حـرامُ ... مـا كـان غـيـرك كُـلُّـهُ أصْـنـامُ
هـذي الـمـواهـبُ بـاطـنـاً أو ظـاهـراً ... فِـتَـنٌ لـديـكَ وكُـلُّـهـا أحـلامُ
والـعـلـم بـالـمـعـلـوم جـهـلٌ شـاغـلٌ ... عـمّـا يُـرامُ بـهِ فـكَـيْـفَ يُـرامُ؟
سَـجَـدَتْ لـكَ الأكـوانُ والأزمـانُ والـ ... أفـنـانُ والأذهـانُ والأفـهـامُ
أنْـتَ الَّـذي وإلـيـكَ كـلُّ إشـارةٍ ... وعـلـى الـجَـمـيـع تـحـيّـةٌ وسَـلامُ

رجعة:

المواجَه إذا لحظ رجع إلى العقل فقام بالشَّريعة، وإذا رقى خرج عن الحسّ فرُفع عنه القلم، كالنّائم حتّى ينتبه.

مثال:

إذا كان التَّطهّرهو المراد بالماء، فما دام الطُّهر حاصلاً، فالغنى عن الماء حاصل.

وهم:

لا يقال: بطلت فضيلة الماء عند من حصل له الطُّهر، بل هو الذي لم يفارق الماء، وإن فارقه الماء، إذ الغاية من الماء معه، فلا يحتاج إليه إلا إن رجع إلى الحدث، وكذلك الشَّريعة.

خيال:

ربّما أخطر العلم بهذه الرُّتبة في بال العقل خيالاً شُبِّه له به أنّه قد نالها، وسقط عنه التَّكليف، فإن حاقق إيّاه وجده في تلك الحالة مكلّفاً، والتَّكليف حيث كان هو من الشَّريعة.

سلامة:

ما دام للعقل وجود مع المحسوس لا يسقط عنه تكليف الشَّريعة، ولهذا لا يسقط عنه من حيث هو في النَّوم، وإن سقطت من حيث الشَّارع. وإنّما يسقط عن الميت.

محاققة:

إذا قال العقل: قد صحّ أنّه إنّما تُنال الحياة في الموت بالموت في الحياة، وهذه رتبتي، فليقل له العقل: إنّما حدّ العقل السَّماء، فما فوق السَّماء، فإمّا أنّه يعترف أنّه ما مات، وإمَّا أنّه ممّن لم تفتح له أبواب السَّموات.

تجريد:

من لم يملك ملكة الموت عن المحسوس من كلّ متعقّل ظاهراً وباطناً، لا يُقال له: مجرّد.

بداية:

من أراد ذلك فليبدأ بالموت عن الحظوظ، فإنّه ما دام حيًا بها، فإمّا هارب أو عاطب.

سير:

من ماتت حظوظه فصبحها حيناً كان آمناً آنفاً، كما أراد أن يُركِّبَ ترياقاً من لحوم الأفاعي، فإنّه آمِنٌ من لسعها، ويأنف من مباشرتها.

وصول:

الواصِلُ من تَساوى عنده رؤية الضِّدّين، وكان واحداً في الحالتين، وهذه العبارة لا تقع عليه من حيثُه بل من حيثُنا لنعرفه بها.

شعر: [مجزوء الوافر]

رِجَالٌ إنْ وَصَفْتُهُمُ ... فَبِي عَنْ وَصْفِهِمْ لُكْنَهْ
هُمُ الأخْرارُ حِينَ رَأَوْا ... سِوَى مَحْبُوبِهِمْ فِتْنَهْ
مَتَى عَرَفُوهُ ما عَرَفُوا ... وهذا عِنْدَهُمْ سُنَّهْ
مَعارِفُهُمْ مَعَ الجنَاتِ ... عَادَتْ عِنْدَهُمْ جَنَّهْ
وعادَ المَوتُ بينهمُ ... وبينَ حَبيبِهِمْ جُنَّهْ
فَقَدْ رَكِبوا جَوادَ الصَّبْـ ... ـرِ بينَ المَوْتِ والمِحْنَهْ
وَهُمْ لِلْمَوْتِ ينتظِرو ... نَ وهُمْ عَليهم المِنَّهْ

تعريف:

ومن كان إطلاق الجمال حجابه، ومشهوده في الجزء، وممّا يرى الكلّ، ولم يجعل الأشواق من كلّ جانب مطايا إلى المحبوب، تاهت به السُّبُل.

تحقيق:

العبودية في تنزيه الرُّبوبيّة.

نظم: [البسيط]

يَهيمُ شَوقاً وما تُخْفي سَرائِرُهُ ... وفيكَ باطِنُه أضحى وظَاهِرُهُ
عَبْدٌ بِحُبِّكَ قَدْ أفْنَى أوائلَهُ ... وفيكَ يا سُؤلَهُ تَفْنَى أواخِرُهُ
يا مَنْ يُشيرُ إليهِ القَلْبُ مُعْتَرِفاً ... بأنَّهُ فوقَ ما تحوي ضَمائِرُهُ
إنْ غِبتُ عنكَ فَعَنّي لا تغيبُ وهَلْ ... أنْسى الذي أنا بالنِّسْيانِ ذاكِرُهُ
مَنْ كانَ أقربَ مِنْ ذَاتي إليَّ ففي ... طَرْفي أراهُ وفي قَلْبي مَخاطِرُهُ

يا فاطِرَ الكَوْنِ يَهواهُ بِفطْرَتِهِ مُشاهداً وحِجابُ الكَوْنِ سَاتِرُهُ
ظَهَرْتَ في كُلِّ ما أظهرتَهُ فَغَدا يَراكَ بالعَيْنِ طَرْفٌ أنتَ نَاظِرُهُ
وَغِبْتَ عَن كُلِّ ما أحدثتَ مُحْتَجباً فلا يحققكَ قَلْبٌ أنتَ فاطِرُهُ
لمّا تعرّفتُ للأشياءِ أجمعُها قُلْنا بلا مِرْيةٍ: كلٌّ مُظاهِرُهُ
وهو المنزَّهُ عن كُنهِ الحُلولِ وعَنْ طورِ العُقول فَقَدْ جَلَّتْ شَعائِرهُ
مِنْ حيثُنا ظَهَرَتْ أسماؤه وله الْتـ ـتَنْزيهُ عَنها فكلٌّ لا يجاوِرهُ
ألا تَراها حَديثاً قد تقدَّمها إنَّ القَديمَ حَديثٌ لا يُخامرُهُ
وعن تعالى، تَعالى أنْ يُقالَ لهُ من خَلْقهِ أبداً لولا أوامرُهُ
يا مَنْ دنا وتعالى أن يُحاطَ بهِ فكيفَ تحويهِ من قلبٍ خواطرهُ
كلٌّ لقُرْبكَ منهُ قائلٌ أنا هو وبُعْدُهُ عنكَ يُغطيهِ تَغايرهُ
فَبُعْدُهُ عنكَ سَاوى القُرْبَ مِنْكَ لَهُ فَقَدْ غَدا جَاهلاً تبدو معاذِرُهُ
وجَهْلُهُ بكَ ساوَى العِلْمَ مِنكَ بهِ فالعِلْمُ عَاذِلُهُ والجَهلُ عاذِرُهُ
لذاكَ أصبحَ لا يُخْشَى سِواهُ ولا يرجو سِواكَ لكسرٍ أنت جابره

الله أكبر، الله تعالى غنيٌّ عمّا في السّموات والأرض، وله ما في السّموات والأرض، وغنيّ عن المحدث، وله المحدث، وغني عن أن يحدث وعن أن لا يحدث. وله أن يحدث وأن لا يحدث. وله الأسماء والصّفات، وغني عن الأسماء والصّفات، فغناؤه بذاته من حيث هو، وله ذلك من حيثنا، ولا يُقال: اقتضت إلهيتُهُ الإيجاد، فإلهيّتُهُ منفصلة عن الاقتضاءات، لأنّ لها الغناء المطلق، والإطلاق لا يثبت قيد الاقتضاء لإيجاد ولا لغير إيجاد، بل له الإطلاق عن التقيّد بالإطلاق، أو بقيد ما. وإنّما غلط العقل لما رأى مصنوعات الحقّ تعالى تقتضي اقتضاء ما، فظنَّ أن ذات الحقّ تعالى اقتضاء ما، وليس كذلك إذ قد ثبت أنّه الغني المطلق، فله إطلاق القدرة لزوماً عن إطلاق الغنى وله إطلاق الاختيار لزوماً عن إطلاق القدرة، وله إطلاق المشيئة فيما يختار، وإطلاق الاختيار فيما يقدر، وإطلاق الغنى عمّا يقدر ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

شعر:

[الكامل]

أومَتْ إليكَ حَقائقُ الأشياءِ وعَلا عَلاؤكَ سائرَ الأنباءِ
فَتَقَطَّعَتْ عَنكَ العُقولُ وأصْبَحَتْ مَسْجونَةً في ظُلْمَةٍ وعَماءِ

فالصَّمتُ أفصَحُ نُطقِها وكأنّها ... قالتْ لِيَصْمتَ سائرُ النُّطقاءِ

وهم:

ما ليس بجسم هو منزّه عن الجهات، ولا يتصوّر أن تقع عليه الإشارات بالحسّيّات، والنّفس ليست بجسم، فهي تدرك ذاتها وما دونها، ولا تدرك البارىء تعالى. ولمّا تفطّن بعضهم إلى أنّها غير جسم ظنَّ أنّها البارىء، فجعلها رهن الشّهوات، تحكم عليها الحركات السّماويات، والخواصّ الأرضيّات، وكيف يمتاز بعضها عن بعض في الأزل، وهي واحد في لا محل.

نظم قال فيه: [الطويل]

إلـيكَ إشَارَاتي بِنَفْيِ الإشارَةِ ... وعَنْكَ عِباراتي بسَلْبِ العبارَةِ

وكلُّ مقامٍ أو مقالٍ ومَشْهدٍ ... إليكَ وإن أوْمَى فدونَ الإمَارةِ

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعرَاف: ١٨٠]، لأنَّ من الأسماءِ ما عُبِّر به مجازاً على صورة الاستعارة ليفهم به المقصود بصيغة من العبارة، خطاباً للنّاس على قدر عقولهم، كما عبّر باليد والعين وغير ذلك، كالمعية والأين، ومن نُوّرت بصيرته وطُهِّرت من رؤية الأغيار سريرته، وصَفَت مرآته، واتّحدتْ ذاته، رأى سائر أسماء الصّفات كذلك، ونزّه عما هنا ما هنالك.

تحقيق:

لمّا كانت ذاته لا تُمثَّل ولا تُعلم، وصفاته من لوازم ذاته، لزم أن صفاته أيضاً لا تُمثّل، ونحن لا نعرف ما لا نعرف إلا بالأمثال، ولا مثل لصفة من صفاته، فنحن إذا عارضنا إنّما نعارض صفاتنا فنظنّ أنّنا قد عارضنا صفاته، وكذلك إن عرفنا ولا شكّ أنَّ لنا قدرةً وعلماً وسمعاً وبصراً، وصفاتنا كلّها مخلوقة مثلنا، فنظنّ بمشاركة الإسميّة أنّا فهمنا أنّه سميع، بصير، عليم، قادر، وعلمنا ذلك، وليس كذلك، إنّما علّمنا صفاتنا ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

نظم: [المجتث]

ما قلتُهُ قُلْتَ عَنّي ... فَلا أرَى القَوْلَ يُغْني

هَيْهاتَ أدركُ ذاتاً ... إليَّ أقْرَبَ مِنّي

لمّا دَنا وتعالى ... أصْبَحْتُ عَنْهُ أُكَنّي

بـــغـــيـــرهِ وَلِـــهـــذا أقـــولُ لـــي عـــنـــهُ: إنّـــي
ولا سِـــــــوايَ وهـــــــذا حَـــقـــيـــقـــةُ الـــمـــتـــمـــنّـــي
فـــالـــصَّـــمْـــتُ أَوْلـــى وَمَـــهْـــمـــا نَـــطَـــقْـــتُ إيَّـــايَ أغْـــنـــي

تصديق ما قبله: [الكامل]

يـا مَـنْ تُـخـاطِـبُـهُ حَـقـيـقـةُ ذاتِـهِ مِـن غـيـرهِ لـكـنَّـهُ لا يُـعـلَـمُ
وهـو الـمُـخَـاطِـبُ ذاتَـهُ فـي غـيـرهِ فـهـو الـمـكـلّـمُ عـنـه والـمـتـكـلّـمُ
مِـرْآتُـكَ الأكـوانُ عَـنْـهـا صـادرٌ مـا تـسـتـحـقُّ فـنـيِّـرٌ أو مُـظْـلِـمُ
كُنْ كـيـفَ شئتَ فلا سواكَ مُعامِلٌ ومُـعـامَـلٌ، ومُـعَـلِّـمٌ، ومُـعَـلَّـمُ
أو مـا تـراكَ بـمـا تـقـولُ مُـحـدِّثـاً عَـنَّـا وأنـتَ مُـكـلِّـمٌ ومُـكـلَّـمُ
وإلـيـكَ عَـنْـكَ يـعـودُ مـا أبْـدَيْـتـهُ عَـنَّـا ونـحـنُ حـقـيـقـةَ لا نَـعْـلَـمُ

سِرُّ السِّرِّ لا يكونُ أبداً إلا سِرًّا، فلو أمكن علمه لم يكن هو، وكذلك الغيب والجنّة، ونحن إذا عظّمنا أمراً استعرنا له من هذه الأسماء مجازاً.

إيضاح:

الأبرارُ يتّقون الجهل، والمقرّبون يتّقون العلم.

مثال:

ظِلُّكَ محجوب بك، فكيف يدرك النُّور الذي يظهره وهو محبوسٌ في ظلمة كونه.

تعريف:

أعرفك بالصِّفات الافتقاريّة، فليس لها محلٌّ غيرك، واعرف من أنت عبده بالاقتدار النَّافذ فيك.

رجل:

إذا وقف سمّر العبد مع من لا تظهر عنه الحركة والانتقال لم تظهر عنه كرامة أصلاً، وصار الأمر باطناً، ففي باطنه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهذا يذهب الأنس والوحشة من قلبه.

عبد:

إذا كوشف العبد بالأمر، فذلك العلم، وإذا ثبت عليه من غير أن يتخلّله عقله، فذلك اليقين، وإذا حكم عليه وأثّر فيه أثراً تتصرّف النّفس على حكم ذلك الأثر فهو الطُمأنينة.

حقّ:

أحاجة الكون إلى الله تعالى ذاتيّة؟.

عبودية:

أي عبد عيّن حاجة إلى الله تعالى، فقضاها له، زالت عبوديّته، وفقره إليه من حيث تلك الحاجة، ومن علم بأنّه تعالى أعلم بما له فيه الخيرة منه لم يبقَ له إليه حاجة سواه.

مثال:

ليس للشّمس في مقابلة شيءٍ من الأجسام كمال، بل هي في إشراقها كاملة، ومقابلها له من إشراقها نصيب بحسبه، وحسبه إليه لأنه هاهنا في هذا المثال الإنسان، وهذا مثال كافٍ، ومقالٌ شافٍ، ومن كان في باطنه التّوجّه إلى ما هو فوق طور العقل، فلو أفيضت عليه المقولات كلها جملة واحدة، لم تشفِ له غليلاً، بل ذلك كما لا يسكن الجوع بالماء والعطش بالخبز.

إظهار:

اعلم أنّ إظهار الفاعلية غير إظهار العقل، وإن دلَّ عليها، فأظهر الله الفعل بإظهاره الوجود، وأظهر الفاعلية بإظهار فاعل مختار، ونضرب مثلاً بالشّمس والقمر الذي نوره من نورها.

بيان:

نور القمر من نور الشّمس، والحركتان مختلفتان، فكذلك فاعلية العبد من فاعلية الحق، لكن حركة القمر غير حركة الشّمس، فهو بحركته التي لو كانت إرادية له كحركة الإنسان لأوجد النّور حيث شاء، وإن كان من غيره.

تنزيه:

دلَّ على وجوده بمصنوعاته، وتعزَّز في ذاته الأعلى ذاته، فهو المنزَّه عن الكمال الذي لا يمكن إدراكه للخلق، فلمّا تقطعت دون إدراك حقيقته الأسباب، علم أنه هو بهذا الحجاب.

شعر: [الكامل]

عَقلتْ لكَ العقلاءُ عنكَ عُقولَها بَعثَتْ إليها منكَ فَهيَ رَسُولُها
وتحقّقتْ منكَ القصورَ فأصبحتْ وقصورُها عمّا ترومُ دليلُها
ومتَى رَأتْكَ لها رأتْ فوصُولَها عينُ الحِجابِ وفي الحجابِ فصولُها

نثر فيه:

العقول والأفكار محدثات، وكلّ محدث حجاب، فكيف الوصول إلى الواجب والمدرك هو الحاجب.

في الدُّعاء:

الدّاعي يجب أن يُشهد، ويُسمّى داعياً، وهذا غير من سمّاه الحيّ بالنسبة إلى الأموات، والقديم لاضطراره إلى عالم المحدثات، فالمسمّى ليس فيه شيء من ذلك.

بيان:

الصِّفات عين الذّات، إذا نظر إليها من الوجه الذي يلي الذّات وهي غير الذّات إذا نظر إليها من الوجه الذي يلي انقسام الوجود إلى الأقسام المتعددة، ولهذا مثال أن العشرة قائمة بنفسها فهي بنسبة الثلاثين ثلثها، والأربعين ربعها، مع أنّ العشرة واحدة، فالعزُّ والذلُّ مثلاً إنّما هو لنا بنسبة شيء إلى شيء، إذ المتغاير كلّه للمحدث، فإذا نسب إليه سبحانه أهل العزّ يسمّى مُعِزّاً، وأهل الذُّلّ يسمّى مُذِلاً، وإذا اعتبر ذلك المعنى مع نسبته إلى الماضي من الأزمنة استُعير له لفظ الأزليّة، وإلى الاستقبال استُعير له لفظ الأبديّة، فهو الموصوف بكلماته، والأحد المتعالي بذاته عن أسمائه وصفاته، فافهم كذلك سائر الصّفات، وإعلام أنّ الذّات النّاقصة تكملها الصِّفات، والذّات الكاملة تكمل غيرها بالصِّفات. فمن حيث هو تعالى مكمل لنا بالصِّفات، صارت عندنا أسماء له، وأمّا من حيث ذاته تعالى فهو لا تغاير بين ما تسمّيه له علماً وإرادة وقدرة، فذاته كافية للكلّ في الكُلّ، وهي بالنّسبة إلى المعلومات علم، وإلى

المقدورات قدرة، وهي الموصوفة بالأحديّة، ولا مغايرة هناك، بل كما لا يحتاج في شيءٍ إلى شيء. وانطلاق هذه الأسماء عليه إنّما هو من حيث الاصطلاح المعروف المألوف عندنا، المبنيّ عن ذات مبدعة عاجزة، ولولا قوله لنا عنه تبارك وتعالى لما جاز لنا ذلك، بل تعالى عن قولنا تعالى، فاعلم أنّه تنمحق قوى العقول دون الوصول إلى إدراك أثر من آثار مبدعها، وكيف لا وعلمه الأوّل كان موجوداً قبل الزّمان كما هو الآن، لكنّها تدرك عجزها عن ذلك كما يدرك الوهم عجزه عن إدراك حقيقة موجود لا يكون داخل العالم، ولا خارجاً عنه، ولا مُتّصلاً به، ولا منفصلاً عنه، ولا يمكن أن يعبر عن حقيقة العلم الأزليّ إلا بهذه العبارة، ولذاك تتشوّش العقول دون إدراك ذلك، فهذا مُعْتَقَدُ قوم اعتقدوا بضع سنين في العلم القديم ما يعتقده الضُّلال حتّى هُدوا فضلاً من الله، والله تعالى يزيدهم معرفة بعجز عقولهم، فمن طمع أن يحيط علمه وعقله بحقيقة علم كان موجوداً قبل الكون، وقبل القَبْل، فقد طلب بيض الأنوق، وقد طمع في تناول العيّوق، وانخلع بالحقيقة عن غريزة العقل، وبالحري أن يُعَدَّ أمثالُه من المجانين. فعقولنا أعجز عن إدراك العلم الأزليّ من النّمل، بل من الجماد عن إدراك علمنا بدرجات كثيرة، ونسبة علمه إلى علمنا كنسبة قدرته إلى قدرتنا التي هي بالحقيقة عاجزة عن إبداع شيء من الأشياء، فضلاً عن إبداع السّموات والأرض من لا شيء.

ولمّا كان العقل يدرك الفرق بين القدرتين، ولا يدرك الفرق بين العلمين من أوّل وهلة تاه في الحكم ووقع في هذه الأغلوطة، فسبحان من أرسل محمداً ﷺ، وقال عزّ وجلّ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، فهذه إشارة صريحة إلى علمه بالجزئيات، منبّهة بأنَّ كُلَّ موجود له نسبة ما إلى وجهه سبحانه وتعالى، ولولا تلك النسبة لما وُجِدَ، فكلّ شيء يعانيه لأنَّ وجهه إليه، فافهم.

شعر: [البسيط]

يا مَنْ تَعالى عَن الأفْكَار مَعْنَاهُ ... لكنْ أشارَتْ إليهِ وهي تخشاهُ
ناجَيْتُ فِكْري ونَاجاني بهِ فَغَدا ... مُطَهَّراً عَنْ سِواهُ فهوَ مأواهُ
أنا أمثّل في فِكْري أُخَاطِبُهُ ... خَلقاً وفي الخَلْقِ ما خَاطبتُ إلا هو

حال: [الكامل]

هَامَتْ بِحُبِّكَ أنفُسٌ وعُقُولُ ... وتَوَلَّهتْ بكَ أرْبُعٌ وطُلُولُ

وتوجَّهتكَ الكائناتُ فأصْبَحتْ تَضبو إليكَ بِكُلِّها وتَميلُ
فيكَ الوجُودُ مُتيَّمٌ وجَميعُهُ لِجَميعهِ عَنّي وعَنْكَ يَقُولُ
لَوْلا جَمالُكَ ما تَهتَّكَ عاشِقٌ بَلْ كُلُّ مَعْشوقٍ عَليكَ دَليلُ

تعليم:

الوجود يريد به هاهنا ما سوى الله تعالى، والقبليّة والبَعديّة من حوادث الوجود، فلا يُقال قبل إيجاده قبل ولا بعد حتّى يُقال: لو لم يوجد قبل، فإنَّ القبل والبعد عارضان من عوارض المكان، وما سوى الله مبدع له، وهو من جهة المبدع لا نسبة له إليه، وهذا معنى قوله عليه السَّلام: «**كانَ اللّهُ ولم يكن معه شيء وهو الآن على ما كان عليه**»[١] فأزليّته حاضرة مع أبديته. وحيث سلطانه فلا موجود غيره، وسبقه للوجود الماضي كسبقه للوجود المستقبل من غير فرق، بل هما كسبقه لما في هذا الطِّرس[٢]. ونسبة الأزليّة إلى الأزمنة كنسبة العلوم إلى الأمكنة، إذ لا توصف العلوم بكونها قريبة من مكان، بعيدة من آخر، بل نسبتها واحدة إلى كل مكان، ومع ذلك فقد خلا عنها كلّ مكان، ولولا القول بالإبداع لكان الوجود فائضاً عنه. ومن زعم أنَّ كلا القولين واحد، فليس كذلك، إذ لا إبداع إلا لما لم يكن، والمُبدَع فقير، فالإنسان أبدعَ لهُ قدرةٌ على الكلام والسُّكوت، وتكون القدرة موجودة مع عدم الكلام على الكلام، لأنَّ ذلك مقرون بالمشيئة، والمشيئة من الإنسان مقرونة بغرض، ولمّا كان ذو الغرض، وهو الإنسان، فقير إلى غرضه، وقف العقل وانحطّ عن إدراك مشيئته من فاعل قادر لا عبثاً، وهو غنيٌّ إذ ذاك فوق قوّة العقل، وليس في قوته أن يدرك ما ليس في قوّته، ومن هاهنا تقدّم الأنبياء على العقول، فليتأخّر العقل هاهنا وليسجدْ.

مثال:

كما أنَّ البصرَ عاجزٌ عن إدراك كثير من الموجودات كالمسموعات والمشمومات مع قدرته على ما خلق قادراً عليه من المبصرات من حيث هو هو، فكذلك العقل يعجز عن إدراك كثير من الموجودات مع قدرته على ما خلق قادراً على إدراكه من حيث هو هو، فلا تغترّ، فإنَّ العقل مجبولٌ على التَّحلّي بكلّ كمال من منع التعرّي عنه، فلا يعترف بالعجز، بل يخوض فيما يجوز، وفيما لا يجوز له الخوض فيه.

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.
(٢) الطِّرس: الصحيفة، أو التي مُحِيَت ثم كُتِبَت.

برهان على ما تقدّم:

العقل عاجز عن إدراك عجزه الحقيقي، وأين هذا من إدراك العلم الأزليّ؟.

زيادة:

اعلم أنّ جميع الموجودات بالإضافة إلى العرش كالذّرّة، بل والذّرّة بالإضافة إلى العرش شيء ما، والموجودات كلّها بالإضافة إلى العلم ليست شيئاً أصلاً، فما للعميان والسُّؤال عن حقائق الألوان؟.

عذر وتفهيم:

قد علمت أنَّ كلّ ما يدرك العقل بالألفاظ المشار بها إلى الصّفات الذّاتية، فكذلك بعيد عن حقائقها أيّ بعد، وإنّما لولا هذه العبارات لتاهَ العقل وانقطع لأنّه في أسر الزّمان، وما لم يخلع صورته لا يخرج من ذلك الأسر، فجاءت الأنبياء بما هو فوق طوره، فكأنّه إن تبعهم قد خلع صورته في بعض الأمر، وخرج من الأسر، ولا يتمّ له ذلك إلا بالإيمان بالغيب، وهذا هو المراد، لأنَّ شجرة المعرفة هي التي أكل منها آدم، وذلك أنّه مال إلى العقل عن الشَّرع، والذي أغواه بها هواه أكل منها قبله، إذ خالف الأمر بما ظنَّ أنّه حقّ في العقل، فافهمه جيداً.

واعلم أنّه لمّا كانت المعاني جواهر، والألفاظ أصدافها، والحِكَم معادن، والقلوب أهدافها، وجب على كلّ من فتحت اليقظة عين بصيرته، وجلت الموعظة عين سريرته، أن يتبع من الكلام معانيه، ومن الحكم ما يبلغ به أمانيه، ولا يقنع من المعدن بدون كنزه، ولا من لفظ إلا بفهم رمزه.

وجود وإشارة وغاية:

كما أنَّ السِّراج يتبدّل في كلّ طرفة عين لأنّه قائم بالمادة، وكلّ ذرّة منه غير الأخرى، فكذلك تبدّل الجود، وغير العارف يظنّ أنه هو، والنّاظرون بعين العقل، يرون للموجودات في ذواتها ترتيباً، ويرون بعضها أقرب إلى بعض إلى الأوّل، وهو واحد، والموجودات منه كثيرة.

وأمّا النّاظرون بعين المعرفة، فلا يرون للموجودات ترتيباً أصلاً، ولا يرون بعضها أقرب إليه من البعض، بل يرون هويّته مع كلّ موجود مساوقة له حسب مساوقته للوجود الأوّل في نظر العلماء من غير فرق، وهذا لأنَّ العلماء جاؤوا من خارج، ومن أسفل، والعارفين من داخل ومن فوق، فاجعل العلوم بذراً ثمراتها المعارف، فالمعارف من العلوم كالمعاني من الألفاظ، فمتى صارت العباراتُ

إشاراتٍ، فهذا باب المقصود، وقد قال عين القضاة رحمه الله تعالى: إنّ كلّ ما كُرِّر مرّة أو أكثر وعلمه غيرك، فهو علم. وما لا يفهم من جهة الألفاظ فهو معرفة، فعلوم الأنبياء لدنيّة، فمن كان علمه من الكتب والمعلّمين فليس هو من ورثة الأنبياء، ومن اختصّ بغير ذلك فله من الوراثة بحسبه، وهذا هو الذي لا يحصل إلا بالتّقوى، ومن لوازمها الصّبر، ولا يُهمل أمر العلم والمعلّم، لكن لا يقتصر عليهما، فليس في قوّتهما إلا الإرشاد إلى سبيل الموردة، فإذا عرفت فَسِرْ ورِدْ، ومن ظنّ أنّه يصل إلى هاهنا بغير جهاد وتجربة فهو ضحكة الشَّيطان.

نبوءة:

واعلم أنّ الإيمان بالنُّبوءة إيمان بالغيب، فإن شبّه العقل هذا الغيب بشيء من الحاضر، فليس هو هو، فإن حصل لك مثل هذا الإيمان، وإلا فحرام عليك أن تأكل وتشرب أو تنام حتّى تعرفه.

تحذير:

احذر بأن تفهم من القول بأنّ الأوّل سبحانه وجوده مساوق لكلّ مبدع أنّه يلزم أن يكون شيء مساوقاً لوجوده. بل هو مع كلّ شيء وليس معه شيء، بل مساوقته لما لم يوجده كمساوقته للموجود من غير فرق، وهاهنا يكلّ العقل عن إدراك أنّه مع كلّ شيء، وأنّه قبل كلّ شيء، فقبليّته لا تتناهى مع كونه يسلم أنه لا شيء قبله ولا بعده ولا معه.

نظم: [البسيط]

طَيْفٌ أطافَ بقَلْبي أينَ مَغْداكا ... ها قَدْ حَلَلْتَ فدتك الرُّوحُ مأواكا
منّي المنى قد حللنا الأبراج وها ... سؤلي وسؤلُكَ تهواني وأهواكا
ناطَقْتَني بِلِسَاني فاسْتَمعتُ لَهُ ... فاللَّفْظُ لَفظي ومَعْنى القَولِ مَعْناكا
أقولُ لي في مَقام القُرْب ها أنذا ... فَخَلِّ غيري وذرْ احذَرْ وإيّاكا
إنّي أُحَدِّثُني عمّن أُحَدِّثُهُ ... إيّايَ ناجَيتُ إذ ناجَيتُ إيَّاكا
بَيْني وبَيْنَك ذَاتي عَنْكَ تُخبِرُني ... أنّي تَملّكْتُ أمْلاكاً وأفلاكا
فالكُلُّ لي وأنا المقْصُودُ عَنْ كَثَبٍ ... وأنتَ أعْلى على الأفْهَام إدراكا
ومَنْ رآكَ بِذَاتِ الكُلِّ مُتَّحداً ... فَقَدْ تَورَّط أشراكاً وإشْرَاكاً

وصيّة:

إذا تجرّدت عن الصّور والجهات، ووقفت معه بالذّات، وأحضرك حالك لديه، وغيّبك عن سواه إليه، فأصبحت مجاب الدُّعاء، مكاشفاً بغيب الأرض والسَّماء. مخاطباً بسائر الأسماء، فلا تَدْعُ إلا إيّاك إليه، ولا تستدلّ بغيره عليه:

نظم: [الكامل]

كُـنْ حَـاضِـراً فـي كُـلِّ آنٍ دائـمـاً مُـسْـتَـحْـضِـراً إيَّـاكَ بـيـنَ يَـدَيْـهِ
مُـتَـجـرِّداً مِـمَّـا سِـواهُ دَاعِـيـاً إيّـاكَ عَـنْـكَ وعَـنْ سِـواهُ إلـيـهِ

احتجاج:

لو جمع بين الواجب والممكن من وجه لجاز عليه الدّثور والاضمحلال من ذلك الوجه، لأنّ الإحاطة بالمعلوم تقضي بتناهيه، والتّناهي على الحقّ الأوّل محال، فالإحاطة مُحال، ومن علم أمراً من وجهٍ ما لأمِنَ جميع وجوهه، فما أحاط به، ولا يمكن أن تنسب إلى الذّوات صفات إلا بعد معرفة الذّوات، وحينئذٍ تعرف كيفيّة النّسبة، فلهذا لا جائزٌ أن يُوصَفَ سبحانه بما لم يصف به نفسه، كما يقال: القديم، وإن جاز عقلاً.

اعلم أنّ الممكن لا يعلم موجده إلا من حيث هو لا غير، فنفسه علم، وأمّا من حيث هو معلول عنه فغير ذلك، ولا يصحّ أن تكون هذه العلة معلولة لمعلولها، لأنّ العلم بالشيء يؤذن بالإحاطة به، والفراغ منه كما تقدم. وهذا في ذلك الجناب محال، فالعلم محال، ولا يصحّ أن يعلم منه، لأنه لا يتبعّض، فلم يبق العلم إلا بما يكون منه، وهو أنت، فأنت العالم والمعلوم هاهنا.

فإن قيل: علمنا بليس هو كذا علم به، قلنا: هي نعوتُك جرّدته عنها فتميّزت أنت عندك عن ذات مجهولة لك من حيث ما هي معلومة بنفسها.

وما تميزت لك هي، وذلك لعدم الصّلات الثّبوتية التي لها في نفسها فافهم ما علمت، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، لو علمته لم يكن هو، ولو جهلك لم تكن أنت، فَبِعِلْمِهِ أوجدك، وبعجزكَ عبدته، فهو هو له لا لك، وأنت أنت لك وله، فأنت مرتبط به، وما هو مرتبط بك، والوجود هو الخير المحض، ومقابله العدم وهو الشَّرُ المحض، وله وحدة إطلاق الوجود، ولا لسواه، والضِّدّان لا يجتمعان.

تفهيم وإيضاح وتفهم:

أنت معنى الكون كلّه، وأوّل القرب من المكوّن بعدك عن الكون.

نظم: [الكامل]

أخفيتَ إذْ أظْهَرْتَ معنًى كائناً ... ما لَمْ يَكُنْ فَخفيتَ في الإعلانِ
فإذا أرَدْتَ ظهورَ ما أخفيتَهُ ... فاخفِ الذي أظْهَرْتَهُ فَتَراني

مؤمن: [البسيط]

يا آخرَ الكُلِّ فيكَ الكُلُّ مُنْدَرِجٌ ... وقَوْلِيَ: الكُلُّ كافٍ إن تكُنْ فَطِنا
وأنْتَ جزؤكَ أو جُزْءُ الوجُودِ كما ... تكونُ عَيْناً إذا ما شِئْتَ أو أُذُنا
فالكُلُّ جُزءٌ أو ما فَوْقَهُ أبَداً ... أضْحى بقَصْدِكَ مَغروقاً ومُرْتَهنا
[إن غِبْتَ غابَ وإنْ تحضرْ تَجِدْكَ لَهُ ... ذَاتاً تَراها لما حاوَلْتَهُ وَطَنا]
فإنْ تَكُنْ فلكاً أو إنْ تكُنْ ملكاً ... أو كنتَ رُوحاً لروحِ الكُلِّ أو بَدَنا
أخطأتَ قَصْدَكَ فالمقصودُ كَوْنُكَ إنـ ... ـساناً وعَبْداً ومَفتوناً ومُمْتَحَنا
هذا مقامُ رَسولِ اللّهِ قُمْ أبَداً ... بهِ تَكُنْ آمناً في الكُلِّ مؤتمنا

غيره: [الطويل]

مَتَى أغْتَني عَن ذا التَنَفُّسِ والنَّفَسْ ... وَيُبْدَلُ لي خَوفي وأخْرُجُ مِن حَبْسي
ويُطْلَقُ هذا الطَّيرُ من قَفَصِ البلى ... إلى مُطلقٍ في مطلقِ النُّورِ والأُنْسِ
فَدَعْنيَ مِنْ سعدى ولَيْلى وزَينبٍ ... فكَمْ وَحشةٍ تلقاكَ في الإنسِ بالأنْسِ
[ودَعْ فلكاً يجري ودَعْ مَلِكاً عَلِيْ ... عَلى قمَّةِ العَلياءِ في عالِم القُدسِ]
ودَعْ جَنَّةَ المأوى معَ السّدْرَةِ الّتي ... هيَ المُنْتَهى في عالم العَقْلِ والحِسِّ
ولا تتّخِذْ غيراً دَليلاً على المُنَى ... سِواكَ تَصِلْ عَيْنَ اليَقينِ بلا لَبْسِ
فَنُوريّةُ الإنسانِ أغْنَتْ بِذَاتِها ... عَنِ الكَوْكَبِ الدُّرّيّ والبَدْرِ والشَّمسِ
مَقامُكَ ذا قُمْ فيهِ وَحْدَكَ حَاضِراً ... فيومُكَ يُغنِي عَن غدٍ لكَ أو أمسِ
وإنْ كُنتَ مِمَّنْ يَعْرِفُ الفَرْقَ هَاهنا ... يَقيناً بلا رَجْمٍ بظَنٍّ ولا حَدْسِ
فَسِرْ عنكَ مفقوداً بوجدٍ إلى الذي ... تعالى عَنِ الأفلاكِ والعَرْشِ والكُرْسي
فَمَنْ نَالَ مِنْهُ الوَجْدُ ما الفَقْدُ عِنْدَهُ ... ومَنْ وَجَدَ الإكسيرَ مَا قيمةُ الفِلْسِ

ران:

نظم: [الطويل]

عَـلا الأمْـرُ حَـتَّـى كَـادَ يـعـدمُ عـنـدَنـا … كـذاكَ دَنـا حـتَّـى مِـنَ الـكُـلِّ يَـظْـهـرُ
فـأظـهـرَ مـمّـا تُـبْـصِـرُ الـعَـيْـنُ ظـاهـراً … لِذي العَقْل من للعَيْنِ والعَقْلِ يَظهرُ
ومـن حـيـثُ أنَّ الـكُـلَّ دلَّ بـكُـلِّـهِ … على فاعلٍ قُلْنا لَهُ: الكُلّ مظهرُ
وقَـدْ أظـهـرتْ منّا العُـقـولُ مظاهراً … بـمـا ظـهـرَتْ إذ حـيـنَ تـظـهـرُ تُـظْـهـرُ
فـمـظـهـر كـلّ مـظـهـرٍ مُـظـهـرٌ لـنـا … بـكُـلٍّ، وكـلّ مـظـهـر هـو مُـظـهـرُ
ولـكـنّ هـذا فـاعِـلٌ مُـتـقـدِّمٌ … تـعـالـى، وهـذا فـاعِـلٌ مُـتـأخِّـرُ
كفُلكٍ بنا تَجرِي ونَجرِي بها فَخُذْ … مِثالاً لما في العَقْل للعَقْلِ يَبْهرُ

إيضاح:

نظم: [البسيط]

في ظُلْمَةِ الكَوْنِ كانَ المُلْتَقى بِهِم … فأيُّ عَيْنٍ تَرى الأكْوانَ في الظُّلَمِ
نَعَمْ ولَوْلا حِجابُ الجِسْمِ لم تَر ما … وَراءَهُ بـيـنَ مَـجْـمـوعٍ ومُـنْـقَـسِـمِ
مَشيمةُ الجِسْم كُلٌّ كالجنين بها … وهَـذه كَـرَةُ الأفـلاكِ كـالـرَّحِـمِ
والعقلُ في ظُلْمَةِ الأحْداثِ مَسْكَنُهُ … مـا زالَ فـي سَـاحـةِ الـلّـذّاتِ والألـمِ
فالجسمُ في عَدَمٍ والعَقْلُ في ظُلمٍ … والـكُـلُّ فـي حَـدثٍ والـحقُّ في قِدَمِ
فليسجدِ العَقلُ مقصوراً عليهِ فما … لـهُ سِـوى رُؤيـةِ الأحْـكـام والـحِـكَـمِ
وفوقَ ما فوقَ طَورِ العَقْلِ مُحْتَجبٌ … عـنـهُ بـهِ قَـدْ تَـعـدَّى مُـقْـتَـضـى الـكِـلَـمِ
هُناكَ في عَالمِ العَقْلِ الجديد ترى … بهِ ولَيْسَ هنا في الكون غير عمي
لـو أدركَ الـمـرءُ قـبـلَ الـكـونِ غـايـتَـهُ … فـيـه تَـسـاوَى وجـودُ الـمَـرْءِ بـالـعَـدَمِ

جد: [الكامل]

لَـكَ مِـنْ فُـؤادي رُتْـبَـةٌ لا تُـدْرَكُ … وسِـواكَ مِـنِّـي ذَرَّةً لا يَـمـلِـكُ
ولَـقَـدْ كَـفَـفْـتُ خَـواطِـري عَـنْ أنَّـهـا … تُـومـي إلـيـكَ مَـخَـافَـةَ لا أُشْـرِكُ
وصَـرَفْـتُ وَجْـهـي عَـن جَـنَـابِـكَ غَـيْـرَةً … مِنّي عَلَيْكَ فَلَسْتُ نَحْوَكَ أسْلِكُ
ووقـفـتُ عِـنْـدَ الأمْـرِ مُـعْـتَـرِفـاً بـلا … قَـصْـدِ اخـتـيـارٍ لـي لأنّـي أهْـلـكُ
حَـسـبـي بـأن عَـرَّضْـتـنـي لـرِضَـاكَ لـي … وهَـدَيْـتَـنـي كَـرَمـاً فـبـانَ الـمَـسْـلـكُ

كشف وإرشاد: [الكامل]

عِلْمُ الحقيقةِ في الخَليقةِ ساري ... فاقرأْهُ فيكَ تجِدْهُ عينَ القَاري
والكُلُّ حَرْفٌ أنتَ نُقطَةُ خَطِّهِ ... ألفٌ تألَّف منهُ باءُ البَاري
وعليكَ تَنْعَطِفُ الحُروفُ فإنْ تَسِرْ ... فبها إليكَ شهدت سينَ السَّاري
واحذرْ تسير بها إليها فهيَ عَمْـ ... ـما منهُ كانَتْ حُجْبَةُ الأسْرَارِ
والكلُّ قَدْ أوْضَحْتُهُ لكَ فانقلبْ ... عن عَيْنها عَيْناً ترى المُتواري
هَذا مقامُك قُمْ بهِ إنْ شئتَ يا ... ذا الاختيارِ سِواكَ ما في الدَّارِ
ولَئِنْ قَطعتُ الاختيارَ رأيتَ قَلْـ ... ـبَ العَينِ عَيْنَ القَلبِ للمُخْتارِ
وهُنا بِدايةُ ما النِّهايةُ دُونَهُ ... في غيرِهِ في السِّرِّ والإجْهارِ
ولَهُ تعاليهِ بهِ عَنهُ فَقُمْ ... بالأمرِ واسجُدْ سَجْدةَ الإقرارِ

خاتمة: [الوافر]

تعرَّفَ بالتَّنَكُّرِ في المظاهِرْ ... ليَشْهَدَ بالبواطِنِ والظَّواهِرْ
علا ودَنا، وجَلَّ بلا مَحَلٍّ ... فأضبحَ خَاطِراً في كلِّ خاطِرْ
فأبدى واختَفى عَن كُلِّ بادٍ ... ظُهوراً بينَ مَقْهورٍ وقاهِرْ
وخاطبَهم بهِمْ وبكُلِّ شيءٍ ... فكُلٌّ سَامِعٌ منهُ وباصِرْ
بَدا بالكُلِّ مُحتجباً بكَشفٍ ... فكُلٌّ كاشِفٌ والكُلُّ ساتِرْ
وحيَّرهم بهِ وهَدى إليهِ ... فكُلٌّ مهتدٍ والكُلُّ حائرْ
رَأَوْهُ بما رَأَوْنُ بهِ رَاَوْهُ ... فكُلٌّ باطِنٌ، والكُلُّ ظاهِرْ
[وسَيَّرهُمْ بهِمْ عَنهُمْ إليهِ ... فَكُلٌّ واقِفٌ والكُلُّ سائِرْ]
وأحْضَرَهُمْ وغَابُوا عَنْ سِواهُ ... فكلٌّ غائبٌ والكُلُّ حاضِرْ
فهذا حَدُّهُمْ والرَّسمُ باقٍ ... فكُلٌّ عاجِزٌ والكُلُّ قادرْ
وإنْ رَفَعَ الزَّمانُ فلا حُدود ... فكُلٌّ أوَّلٌ والكُلُّ آخِرْ

تمّ بحمد الله في يوم الإثنين بإذن الله في العشر الأوسط من رجب المرجب بتوفيق الله في تاريخ كتبت ببكاء لحب الله، على يد الحقير محبّ الله غفره الله في بيت الله بجوار المصنّف قبلة المحققين شيخ محيي الملّة والدّين، ولي الله، رضي الله عنا وعن كلّ عبد لله بحرمة محمد وآله عليه وعليهم صلاة الله وسلام الله.